كتاب الدوحة

غسان كنفاني

برقوق نيسان

القميص المسروق

وقصص أخرى



غسان كنفاني

برقوق نيسان

القميص المسروق
وقصص أخرى

دراسة: د. فيصل دراج



غسان كنفاني

برقوق نيسان (رواية)

القميص المسروق

وقصص أخرى

الناشر
وزارة الثقافة والفنون والتراث – دولة قطر
رقم الإيداع بدار الكتب القطرية :
الترقيم الدولي (ردمك) :

إخراج وتنفيذ : القسم الفني – مجلة الدوحة
لوحة الغلاف : رسم على جدار في مخيم برج البراجنه

فهرس الكتاب

لماذا تكون باقة الزهر
أكثر براءة من صحن الكنافة؟

«لم أحب له غير برقوق نيسان».

قالت على الهاتف، وتمنت لي ليلة طيبة لتنام في بيتها، بينما كنت أعاني الأرق في بيتي. قمت إلى المكتبة وأخرجت مجلد الروايات من بين أعمال غسان كنفاني، لأطعم أرقي تلك الرواية التي رشحتها من أثق في ذوقها.

طالعت رقمي صفحتي البداية والنهاية، حسبتها: خمساً وثلاثين صفحة بينها ثلاث صفحات للرسوم!

بدا الحجم الصغير محبطاً، فالرواية بحجمها النحيل لا تكفي لحسم المعركة لصالح النوم ضد أرق بدا في تلك اللحظة عفياً بما يكفي للصمود حتى الصباح.

لنرَ!

أعادتني البداية التي لا تخلو من لمحة رومانسية إلى مفتتح «رجال في الشمس» من حيث أنسنة الأرض. تبدأ «رجال في الشمس» هكذا: «أراح أبو قيس صدره فوق التراب النديّ، فبدأت الأرض تخفق من تحته....» ولم تبتعد بداية «برقوق نيسان» عن هذه اللمحة الرومانسية: «عندما جاء نيسان أخذت الأرض تتضرج بزهر البرقوق الأحمر وكأنها بدن رجل شاسع، مثقب

بـالرصاص. كـان الحزن وكـان الفرح المختبئ فيه مثلمـا تكون الولادة ويكون الألم، هكذا مـات قـاسم قبل سنة».

لكن الأمور لا تمضي بـالقـارئ على النحو الذي يرسمه المفتتح، لأن الكاتب وضع إشارة لهامش يأخذ القارئ إلى سرد سريع له مظهر الإخبار الحيادي مثل تراجم القدماء للشخصيات، يشرح باختصار سيرة قاسم من مولده في قرية طيرة دندن قرب يافا في الخامس من أيلول/سبتمبر، إلى استشهاده في نيسان/إبريل 1970 مع ستة فدائيين من أصل مجموعة عددها سبعة في معركة مع دورية إسرائيلية.

بين المولد والاستشهاد سيرة عادية لفلسطينيّي تلك الفترة: الميلاد، سنوات قليلة من التعليم، التحول إلى لاجئ، النزول إلى العمل مبكراً، الانضمام إلى تنظيم فدائيين.

يلتزم الكاتب في الهوامش حياد المؤرخ وكاتب الترجمة الشخصية، لكن ليس كل ما يريده الكاتب من قارئه يدركه، يتوتر التلقي عند حادث صغير «يجدر تذكره» فقد تعرف أحد الفدائيين الأسرى جثة قاسم الميكانيكي من أريحا، وفي اليوم التالي أحضرت الشرطة أباه الذي اعترف بأن ولده يعيش شرق نهر الأردن، ولكنه بعد أن تفحص الجثة وتعرف فيها لحم قلبه أنكر أن تكون لولده!

هذه الطلقة الشعورية العارية في الهامش ستتكرر في هوامش أخرى. وهي أقرب ما تكون إلى ضربات همنجواي التي تبدو حيادية، بينما تضع أعصاب الكلمات فوق جلدها.

الخيار اللغوي، الصارم كلغة الأخبار، في الهامش يختلف مع خيار المتن الأكثر عاطفية، وسنرى من خلال الهامش جانباً آخر يضيء زاوية جديدة من القصة، تأنيب أبي القاسم لنفسه لأنه أنكر ولده حتى لا يتعرض للضرب والإهانة في سنه المتأخرة، وسنرى تأملاته، تأملات الراوي في الواقع عن أنواع المدن في شبهها بأولاد العائلة، لكل منهم شخصيته ومزاجه، قبل أن تقفز إلى رأسه صورة رجل مثقب بالرصاص، تضرج بزهر البرقوق، ويكاد المرء يسمع نزيز الدم يتدفق من تحته.

تمضي الرواية القصيرة على هذا النحو من التصارع والتكامل في آن بين

المتن والهامش.

وهي على قصرها تستعير بنية ألف ليلة وليلة، برهافة تكاد لا تفصح عن هذا التأثر، وبينما يتناوب الشعر والنثر السرد في الليالي داخل متن الحكاية، بينما في رواية غسان يقوم جدل المنازعة والتكامل بين المتن، بلغته الشعرية، والهامش، بلغته المحايدة التي تحمل بداخلها شعرية المفارقة الصادمة.

تتمثل الرواية كذلك بنية الليالي عبر حيلة توالد قصة من قصة، استشهاد قيس يستدعي أباه وهذا يستدعي اسم «سعاد» من خلال مونولوج عن تقصيره معها، عندما يدخل عليها كل شهر بيد خالية، مما يجعلنا نتوقعها ابنته أو زوجه، ويتم إرجاء التعريف بها بينما يتم الدفع بـ «طلال» المناضل الذي سيمنح الختيار خمسة دنانير شهرية، وذات يوم يخبره بأنه سينقطع عنه وأن التي ستزوره في أريحا هي سيدة تحمل وردة حمراء، وبعد ذلك يتولى الهامش البحثي المراوغ تقديم سعاد التي تركت الدراسة في دمشق وعادت من أجل النضال.

ولا نكاد نتعرف إلى سعاد ونعرف وجه العلاقة بينها وبين والد الشهيد الذي رأى أن يجمع لها من طريقه باقة من زهر البرقوق، لكنه يدخل إلى البيت فلا يجدها، بل يجد قوة إسرائيلية، ويفاجأ الختيار أبو القاسم بالكمين داخل البيت واختفاء سعاد بينما كان هناك طفل لا يكف عن البكاء.

لم يعرف أبو القاسم ماذا يفعل بباقة من زهور البرقوق جمعها لها من الطريق حتى لا يدخل بيد خاوية هذه المرة، ويبدأ استجواب عبثي للرجل المسن حول سر حمله الزهور إلى سعاد وإن كانت عشيقته.

ولا يترك الكاتب الدورية الإسرائيلية قوة شر مصمتة، بل يحكي أن أحد أعضائها أبراهام وهو ليس سوى إبراهيم المغربي، وكان شقيقه قد انضم إلى تنظيم مغربي عمالي، فتم التضييق على العائلة حتى لم تعد تجد مفراً من التعامل مع يهودي فرنسي تولى تهريبها إلى باريس ومنها إلى تل أبيب، لكن الشقيق الأكبر الذي تسبب في هذا النزوح عملياً قرر البقاء في فرنسا وعدم الهجرة إلى إسرائيل.

وبعد فترة يدخل شخص جديد هو زياد يفاجأ بهذا الحشد ويحاول التنصل من معرفة سعاد، وتفسير وجود طفله وليد بأن أمه أرسلته بصحن من صدر



كنافة أعدته، لمجرد أنها جارتهم. ويقول إنه جاء قلقاً على طفله الذي تأخر.

وهذه هي رواية المتن، لكننا من الهامش سنعرف أن الجار مناضل شيوعي قديم أثارت سعاد احترامه بتمردها على أبيها الذي يكرهه ويراه نموذجاً للموظف البيروقراطي الذليل. ونعرف أنها كلفته بأن يحاول اللحاق بالختيار (أبو القاسم) قبل الوصول إلى البيت ليأخذه إلى طلال، وهناك سيعرف باقي المهمات.

وفي المتن ستكتمل القصة بجلبة يثيرها أبو القاسم وصوت هروب طلال تسمعه الدورية الإسرائيلية خارج البيت، فيلكم ضابطها الختيار ويكتشف حيلته، لكن (زياد) يقول إن (طلال) الذي هرب ليس سوى طفل صديق ابنه يبدو أنه جاء ليسأل عنه وعندما سمع أصوات الجلبة فرّ هارباً.

نحن إذاً أمام شيخ حمل الزهور إليها وطفل حمل الكنافة، والمحتلون لا يصدقون تبرير وجودهما. فجأة ينخرط الكبار في الضحك: أبو القاسم وزياد والضابط!

ويطلب أبو القاسم من زياد أن يقنعهم بإطلاق سراحه، ويرد زياد بأنه في ذات الورطة، ويلح الشيخ:

– إنها باقة زهر يا سيدي، باقة زهر فقط.

ويرد زياد:

– ولماذا تكون باقة الزهر أكثر براءة من صحن الكنافة؟

ونستطيع أن نقرأ الإجابة بطريقة أخرى: ولماذا يكون صحن الكنافة أكثر فلسطينية من باقة زهر؟

بحثت في كل المتواتر حول عدم اكتمال الرواية التي استشهد عنها غسان في تموز/ يوليو فلم أجد ما يؤكد أو ينفي، لكنها تبدو لي مكتملة هكذا، لأن تعليق المصائر كلها: سعاد، أبو القاسم، زياد، وطلال، لايعني عدم اكتمال الحكاية، لكن يعني أن الحكاية الفلسطينية قابلة للتوالد على هذا النحو إلى ما لا نهاية، تماماً مثل حكايات ألف ليلة، وبين النصين متعة القراءة، وبين الحكايتين فارق الواقعية المؤلمة في الحكاية الفلسطينية.

عزت القمحاوي

عندما جاء نيسان أخذت الأرض تتضرّج بزهر البرقوق الأحمر وكأنها بدن رجل شاسع، مثقَّب بالرصاص. كان الحزن، وكان الفرح المختبئ فيه مثلما تكون الولادة ويكون الألم، هكذا مات قاسم[1] قبل

(1) كان قاسم خليل قد ولد في طيرة دندن قرب يافا في الخامس من أيلول من عام 1940، وأصبح بعد سنة واحدة الابن الأوحد في العائلة بعد أن مات شقيقه الذي يكبره سنتين إثر إصابته بالحصبة، ولم يتمكن قاسم من أن يدرس في مدرسة القرية إلا حوالي سنتين، وقد أصبح لاجئاً في نيسان من عام 1948، قبل أن يكمل العام الثامن من عمره، وبعد ذلك سكن في أحد بيوت الصفيح في مخيم عقبة جبر قرب أريحا مع أبويه، وفي غضون ذلك كان يعمل إجيراً في كاراج للسيارات في أريحا، وتمكّن –حين صار في العشرين– من أن يطلق على نفسه لقب ميكانيكي، وكانت آماله تنحصر في أن يتمكّن ذات يوم من أن يصبح ميكانيكي طائرات، أو على الأقل مالكاً لكراجه الخاص، إلا أنه في الخامسة والعشرين تخلى عن هذه المطامح. كانت الأحزاب الوطنية في تلك الفترة قد تخلخلت تحت الضربات المتلاحقة التي وجهتها السلطات الأردنية، وهكذا ضاع أمله في الالتحاق بالحزب الشيوعي الذي كان أحد رفقائه في الكاراج يمتدحه أمامه، فقد ضاعت أخبار ذلك الرفيق فجأة، وهكذا فكّر في أن ينشئ حزباً فدائياً بنفسه، والتحق بدورة تدريب للحرس الوطني لذلك الغرض، وحين شرع يرسم خططاً صغيرة ليبدأ اتصالاته تفجّرت حرب 1967، وسمع وسط الفوضى أن الفدائيين يحشدون صفوفهم وراء النهر، فترك والده، ومخيم عقبة جبر واتجه إلى السلط في الثاني عشر من حزيران 1967.

سنة، وقد دفن حيث لا يعرف أحد، دون اسم[2] ويبدو الآن بعيداً كأنه لم يكن طوال العمر إلا واحداً من هذه الأحلام العظيمة التي تظلّ مع المرء وكأنها جزء منه، وترافقه إلى الفناء دون أن توجد حقاً، ومع ذلك فإنها قادرة على أن تكون مثل حقيقة ما، يفتقدها المرء من حين إلى آخر، ويشعر في لحظة أو أخرى ملمسها وكأنها فرَّت للتوّ من بين راحتيه.

وكانت نابلس، ذلك الصباح، منكفئة على نفسها وكأنها ما تزال نائمة، وقال أبو القاسم[3] لنفسه: إن المدن مثل الرجال، تشعر بالحزن. تفرح وتنام، وتعبر عن نفسها بصورة فريدة تكاد لا تُصدّق، وتتعاطف بغموض مع الغرباء أو تركلهم.. بل إن الأحياء في المدينة مثل الأولاد في العائلة، لكل منهم شخصيته ومنزلته ومزاجه، فثمة شوارع محببة، وأخرى تتقاذف العابرين فيها بفظاظة، وشوارع خبيثة، وأخرى صريحة، ولكن أبا القاسم كان الآن منشغلاً بتلك الصورة الغريبة التي

(2) في نيسان من عام 1970 نشرت الصحف أن دورية إسرائيلية اصطدمت بمجموعة من الفدائيين جنوبي البحر الميت، وقد استمرت المعركة عدة ساعات استشهد فيها من أصل سبعة فدائيين كانوا هناك ستة، وتمكن السابع من الفرار، وقد ظلّت أسماء جميع الشهداء مجهولة حيث دُفنت بمعرفة السلطات فحسب. إلا أن حادثاً صغيراً وقع عند ذاك يجدر تذكّره: فقد عُرضت الجثث على بعض الفدائيين الأسرى في محاولة للتعرف إليها، وكانت أربع جثث مشوّهة بحيث استحال التعرّف إلى أي منها، وأبدى أحد الأسرى شكّه في أن تكون إحدى الجثتين الباقيتين لشاب يدعى قاسم، كان يعمل ميكانيكياً في أريحا، وفي اليوم التالي أحضرت الشرطة والد قاسم الذي اعترف بأن ولده يعيش شرقي النهر ولكنه بعدما تفحص الجثة أنكر أن تكون لولده، وكان التشويه يمنع من الوصول إلى قرار، وحين ووجِهَ الفدائي الأسير الذي تعرّف إلى الجثّة بوالد قاسم نفى أن تكون شكوكه مبنيّة على معرفة حميمة بالشاب المجهول، وما لبث أن تراجع عن شهادته، وهكذا أُخليَ سبيل الرجل العجوز بعدما سجّل توقيعه وتعهداته على أوراق عديدة تنصّ على أنه سيتحمّل بنفسه مسؤولية أي عمل يمكن لابنه قاسم الذي يعيش شرقي النهر أن يرتكبه ضد سلطات الاحتلال.

(3) في الواقع إنه يشعر الآن بأنه أكبر سناً مما هو حقاً، ويردد لنفسه أن الكوارث الثلاث التي نزلت به ينوء تحتها جبل: فقدان قريته ونزوحه عام 1948، وموت أم قاسم بالسل عام 1953، واستشهاد قاسم قبل سنة.

اقتحمته كأنها قذفت على رأسه بحجر: بدن الأرض مثل بدن رجل مثقّب بالرصاص، يتضرّج بزهر البرقوق، ويكاد المرء يسمع نزيز الدم يتدفق من تحته، ولا ريب أن قاسم بدا كذلك بعد هنيهات من سقوطه، ثم ذبلت بقع الدم على سترته الخاكية مثلما تجفف شمس الصيف المتوقّدة أوراق البرقوق الهشّة.

استدار أبو القاسم، وأخذ يتأمل من جديد تلك البقع الحمراء الممتدة أمام عينيه فوق تلّة صغيرة، ودون أن يعرف بالضبط ما الذي يريده. خطا نحو التلّة، وأخذ يجمع باقة من الزهر المخضّب بالاحمرار القاني، قال لنفسه وهو ينحني: «منذ سنة وأنا آتي لسعاد[4] بكفّين فارغتين كل شهر، ولا ريب أن منظر هذه الزهور سيبدو على الطاولة البيضاء جميلاً، ثم إن.....» وقد شعر بالتعب وهو يستلّ الزهور الغضّة، وبدت له أشد تمسّكاً بالأرض مما خيّل إليه حين كان ينظر إليها من بعيد، وما لبثت الأفكار التي كانت تحوم على غير هدى في رأسه أن أخذت تترابط بصورة تبعث على الدهشة، فقد تذكّر أنه حين رأى سعاد لأول مرة في أريحا لفت نظره قرص أحمر من زهر البرقوق يتوقد وسط شعرها الفاحم السواد، وإن ذلك بعث فيه السعادة لأن طلال قال بأن سيدة تحمل وردة حمراء ستزوره في أريحا[5]، وتحدثه عن قاسم، وقد دقت هذه السيدة الباب في اليوم التالي، وطلبت منه أن يحدثها بالتفصيل عما حدث له حين استدُعِي إلى المخفر الإسرائيلي قبل أسبوع لتعرض عليه جثة أحد الفدائيين القتلى[6] وحين كان يروي لها قصته أخذت عيناها السوداوان تنضحان دمعاً من تلقائهما، وقالت له: يا أبا القاسم ليس بوسع أحد

(4) ولدت سعاد وقّاد في نابلس عام 1945، وكان والدها موظفاً صغيراً في دائرة النفوس التي كانت آنذاك تابعة لحكومة الانتداب، وقد ظل موظفاً في نفس المرتبة والدائرة خلال هيمنة النظام الأردني على الضفة الغربية، وهكذا تمكّن من إرسال ابنته سعاد إلى جامعة دمشق عام 1962، وقد درست لمدة سنة في كلية الآداب، إلا أنها عادت والتحقت بقسم العلوم السياسية، وهناك تعرّفت بأحد الشبان المتحمسين لحزب البعث، وما لبث أن ألحقها بالحزب ولكنها لم تستطع أن تكون عضواً منظم الولاء والنشاط، وكانت هذه المشكلة بالذات هي التي فتحت عينيها على رغبة عميقة في دراسة المسائل التنظيمية في العمل السياسي، وساقتها هذه الدراسة إلى إلقاء نظرة دراسية على الحزب الشيوعي، وعلى بنية حركة القوميين العرب التي شعرت آنذاك أنها آخذة بالتمزق تحت وطأة صراع سياسي حاد في صفوفها لم يكن من الممكن الحفاظ مع حدته على الوحدة التنظيمية للحركة لو لم تكن مشدودة إلى قانون صارم للعلاقات الداخلية، ولم يكن من الممكن معرفة ماذا كان سيحدث لسعاد ولحماسها السياسي لو لم يصعد حزب البعث في تلك الآونة إلى مرتبة السلطة، وقد كان لسعاد آراء غامضة، ولكنها بالغة التأثير بالتغير الذي يطرأ على الأحزاب السياسية عموماً، وذات البرامج الفضفاضة والغامضة خصوصاً، حين تهيمن على دفّة السلطة، وهكذا فقد شهدت تلك الفترة من حياة سعاد وقاد خمولاً سياسياً وحيرة بالغة الحدّة، ولكنها مع ذلك أبدت اهتماماً خاصاً بمجموعة من الشبان أبدوا تصميمهم على إحداث تغيير نحو اليسار في حركة القوميين العرب، وكان سبب هذا الاهتمام بالدرجة الأولى دراسة تعدُّها سعاد عن مكانة الناصرية في المسيرة الوطنية العربية في تلك الفترة، إلا أن الارتباط مضى أبعد من ذلك، فقد التحقت سعاد بالذراع الفلسطيني للحركة الذي كان قد بنى تنظيماً فدائياً صغيراً أطلق عليه اسم «شباب الثأر» وكانت تشعر بشيء من الاعتزاز حين كُلِّفَت بالقيام باتصال صغير في نابلس إبان عطلتها الصيفية، والعمل على بناء خليّة هناك، إلا أن الحرب فجأتها فقررت البقاء، وكانت القدرات التي أظهرتها في الاتصال وفي العمل هي التي أوصلتها في فترة وجيزة إلى مرتبة قيادية في نابلس.

(5) كان طلال شاباً قصير القامة لم يبلغ العشرين بعد، ويبدو أنه كان يتقن عبور النهر ونقل الرسائل، وفي الماضي كان يزور أبا القاسم مرة في الشهر ويعطيه ثلاثة دنانير ويقول له: «قاسم يسلم عليك» ولا يزيد كلمة واحدة. وفي آخر مرة رآه قال له إن سيدة تحمل وردة حمراء ستزوره، وأنه لن يراه بعد. وكانت تلك السيدة هي سعاد ذاتها. ومنذ ذلك الوقت تولت سعاد إعالته، وكانت تعطيه خمسة دنانير في كل مطلع شهر.

(6) توجس خيفة منذ الصباح، وكان يشعر بثقل غامض يجثم على صدره، وعند الظهر جاء شرطيان وأخذاه إلى المخفر، وأخذ رجل أبرص، يلمع كأنه مدهون يسأله عن قاسم، وبعد وهلة عرف في قرارة نفسه أن ولده قد قتل، ولكن الأبرص لم يكن قد أشار إلى ذلك بعد. «أتعرفين كيف يتصارع الرجل مع دموعه؟ مثلما يحاول فلاح أن يسدّ ثقوب الساقية بكفّيه. وظل الأبرص يسأل ولم أكن أعرف بماذا كنت أجيب» وأخيراً أدخلوه إلى غرفة مترعة برائحة الموت «وكان قاسم هناك، ممدداً على طاولة، وقد نظرت إليه لحظة واحدة فحسب، ثم أخذت أنظر إلى راحة يده ورأيت فيها إرادة رجل بطل ظل ممسكاً بسلاحه حتى اللحظة الأخيرة، ولم تفرد أصابعه إلا بالقوّة، وبعد أن مات، وسألوه إن كان يعرفه، نفى ذلك بشدّة: «إن قاسم شاب أطول قامة، وأشد سمرة، ثم إنه سافر إلى الكويت وهو يعمل في كاراج للسيارات هناك» وشعر بالعار لأنه يكذب، ولم يكن يعرف لماذا كان خائفاً إلى هذا الحدّ. «لقد أنكرته، ولكنه سيغفر لي، فأنا رجل عجوز لا أتحمّل السجن ولا الضرب، وأريد أن أموت هنا، وليس شرقي النهر، أنت تفهمين ذلك أيتها السيدة.. أليس كذلك؟»

أن يملأ مكان أحد، وقد كان قاسم بطلاً، وعليك أن تكون فخوراً به، وقد فعلت شيئاً حسناً حين أنكرته لأنك أنقذت الكثيرين من رفاقه. لا تقل الحقيقة لأحد، وخذني أنا مكان قاسم.

ومنذ ذلك اليوم وهو يزورها في نابلس، ويقيم في بيتها يوماً أو يومين، ويأخذ الدنانير الخمسة ويعود إلى أريحا [7] وقد قال لها ذات يوم: «الختيار.. هل ما زال حيّاً؟» وحين قالت له: «لا» أجابها :«هل تقبلينني أباً.؟» وقالت سعاد: «يا أبا القاسم، أنت والدنا كلنا، لأن الشهيد كان أخانا كلنا..» وعندها سألها عما إذا كان يستطيع أن يفعل شيئاً مفيداً، وأجابته سعاد بنبرتها الحاسمة: «ذات يوم، ربما»

وقف أبو القاسم مستشعراً الألم في خاصرته من طول الانحناء وكانت باقة الزهر الأحمر قد أصبحت كبيرة وبدت في يده الخشنة شعلة من اللهب، ووراء التلة كان بيت سعاد بشبابيكه الصغيرة في الطابق الثاني، وقال لنفسه: «ربما كانت تنظر إليّ الآن»، وقرر أن يبادرها بالجملة ذاتها التي بادرته بها حين زارته لأول مرة[8] في أريحا، ومن ثم انطلق نازلاً التلة إلى الطريق، ومضى نحو منزل سعاد.

آخر شيء يذكره أبو القاسم من عالمه القديم كان ذلك السلم الطويل الخشن الذي يوصل إلى بيت سعاد، إلا أن الباقة الحمراء التي كانت تتوقّد في كفّه ظلت أكثر رسوخاً في ذاكرته، منذ هذه اللحظة، أكثر من أي شيء

(7) كانت وكالة الغوث قد قطعت إعاشته، وسحبت منه الدفتر الأحمر الذي كان يخوّله تناول المؤن، وذلك لأن تقارير شعبة التحري في الوكالة قد أثبتت بأن ابنه يحصّل مدخولاً شهرياً يزيد عن عشرة دنانير.

(8) دخلت البيت، وانتزعت الزهرة الحمراء من شعرها وهي تقول له: «البرقوق ورد الفقراء يا أبا القاسم» وبعد هنيهة قالت له: «أهل القسطل كانوا يقولون: هذه دماء الشهداء تطلّ علينا».

آخر: لقد صعد درجات السلم ذلك الصباح دون أن يراوده أي شك بأنه سيعود فينزلها كما صعدها، ويعود إلى عالمه القديم الذي يبدو له الآن أنه غادره تماماً. إن للرجال أقدارهم المكتوبة منذ الأزل، والتي هي مثل أسمائهم، تلتصق بهم في لحظة لا يدركون كيف جاءت. لقد قرع الباب متوقعاً وجه سعاد بملامحه القاسية، لكن الجميلة، إلا أنه فوجئ بقبضة قوية تعضّ كتفه، وتجذبه بعنف إلى الداخل، ثم سمع اصطفاق الباب وراءه مثل انفجار.

وحين استرد توازنه على المقعد الذي قُذِف إليه، أطلّت عليه ثلاثة رشيشات، ووراءها وقف جنديان وضابط. وفتح أبو القاسم فمه دون أن ينوي قول شيء معين، إلا أن الضابط نهره: «هش»

وأخذ أحد الجنديين يفتّشه، باحثاً في جيوب قنبازه عن شيء ما، وعندما تنبّه أبو القاسم إلى وجود ثلاثة أشخاص آخرين في الغرفة، واقفين ووجوههم إلى الجدار، وفي الزاوية كان ثمة طفل في العاشرة يبكي بما يشبه الهمس، ولم تكن سعاد هناك، وبدت صورة والدها المعلّقة على الجدار، بشاربيه العظيمين[9] أكثر غرابة مما كانت في أي وقت مضى، وكان ما يزال مشوَّشاً، غير قادر على إعادة ترتيب ما حدث، حين قبضت يد الجندي بشدّة على زنده ورفع يده بعنف إلى فوق. عندها فقط شهد باقة الزهر الأحمر مرة أخرى، وتعجب لهنيهة كيف لم تسقط من يده، ولم تتمزق وسط ذلك العراك الأحمق الذي يجري دون هدف معيّن. ودفعه الجندي إلى الحائط، وساعده الجندي الآخر في صلبه

(9) حين قال لسعاد مرة إن شاربَيْ والدها في الصورة يبدوان مخيفين، ضحكت برهة، ثم انصرفت إلى التفكير، وأخيراً سألته: «ماذا يحدث للشوارب يا أبا القاسم حين يأكل الدود جسد الرجل الميت.؟» ومنذ ذلك الحين وهو غير قادر على صرف هذا السؤال من ذهنه كلما رأى صورة الأب، بشاربيه الكبيرين.

أمام الجدار بذراعيه المفتوحتين إلى أقصى ما يستطيع، وبهدوء أرغمه الضابط على فتح كفّه ببطء، وتناول الباقة بحذر مبالغ به، وسحبها بما يشبه الاحتفال المنظّم على الطاولة الرخامية[10] ووقف يتأمّلها لحظة، ثم استدار فجأة بعنف:

– ما هذا.؟

– هذا.؟

– أجل ما هذا.؟

– كما ترى، زهر يا سيدي.. برقوق نيسان.

– هه!

وابتسم ابتسامة خبيثة ونظر من طرف عينيه إلى الجنديين، وعاد يسأل وكأن فترة المزاح التي أتاحها قد انتهت:

– ما هذا.؟

– ورد، زهر، برقوق، يا سيدي..

– إنني أسألك للمرة الأخيرة.. ما هذا..؟

ولم يستطع أبو القاسم أن يعرف إن كان الضابط يحاول أن يجعل منه أضحوكة أم أنه جاد حقاً، واكتسحته موجة من حيرة حزينة، وأخذ ينظر حواليه محاولاً الاستنجاد بشيء ما، كان الطفل قد كفّ عن البكاء، وأخذ ينظر بفضول إلى باقة الزهر الأحمر فيما كان وجهه يكتسي بملامح تشبه الدهشة، وتذكّر سعاد فيما كانت الأفكار تعود إلى التراكب في رأسه، وتساءل إن كان يتعين عليه الآن مرة أخرى أن يدخل الغرفة الثانية وينظر إليها ممددة على السرير وراحة يدها مفروودة الأصابع بالقوة وملطّخة بالدم.

(10) مرة قالت له سعاد وهي تشير إلى الطاولة، وكانت مغطاة بشرشف سكّريّ اللون مشغولة حواشيه بالصنارة: «انظر ماذا كانت تفعل أمي طوال عمرها، تشتغل بالصنارة وتفني عينيها كي تبدو طاولة أبي محترمة أمام ضيوفه».

– ماذا يمكن أن يكون هذا يا سيدي غير زهر البرقوق الذي تفتّحَ هذا الصباح على قارعة الطريق.؟

– أنا الذي أسألك.

وهزّ أبو القاسم كتفيه وسكت. لقد أدرك أن الكلام لم يعد يفيد أحداً، وأن ثمة شيئاً لا يفهمه يحدث بغموض، وأمام هذه الحيرة لا يسعه في الواقع إلا أن يصمت، إلا أن الضابط نهره:

– تهزّ كتفيك وكأنك بريء.! أتريد أن أساعدك قليلاً.؟ من الذي أعطاك هذه الباقة.. ولماذا.؟

– قطفتها عن الطريق، وكنت....

– أأنت عشيقها.؟

– وضحك الجندي، فيما تساءل أبو القاسم:

–استغفر **الله**.. عشيق من.؟

– عشيق العفريتة التي تسكن هنا..

– أنا رجل عجوز يا سيدي، أيمكن أن يحدث هذا.؟

– إذن لماذا أحضرت الزهر.؟ من الذي أرسلك.؟

– جئت...

إلا أن صورة قاسم جاءت عاصفة مثل الارتطام، ووراءها جاءت صورة سعاد. ولم يعد يعرف ماذا يتعين عليه أن يقول، فيما أخذ ينظر حواليه وهو شديد الارتباك، محتاراً تحت النظرات التي كان يسلّطها عليه، ثم سأل بصوت أدهشه كيف انفلت من صدره مليئاً بالاستجداء:

– ماذا حدث لسعاد يا سيدي.؟ هل هي بخير.؟

– كفى تمثيلاً أيها الشائب، وقل لي ما معنى هذا.؟

ونظر أبو القاسم إلى حيث أشار الضابط. كانت باقة الزهر الأحمر ملقاة فوق الطاولة، وبدت أقل جمالاً مما كانت، وأجاب:

– ماذا يمكن للزهر أن يعني يا سيدي غير الودّ.؟

– هه!

– اسأل هؤلاء كلهم.. أيعني الزهر غير الودّ والاحترام.؟

– من الذي بعثك بالباقة.؟

– أنا الذي قطفتها.

– من الذي طلب منك أن تقطفها.؟

– لا أحد..

– ما هي علاقتك بسعاد إذن.؟ هل أنت عشيقها.؟

وأخذ الجندي[11] الواقف قرب الطاولة يضحك بصوت مكتوم، وقال

(11) كان يهودياً مغربياً اسمه إبراهيم، ولد في الدار البيضاء عام 1945، وكان أبوه يمتلك دكاناً صغيراً في حيّ شعبي لبيع الأقمشة وبعض الألبسة الجاهزة، أما شقيقه الأكبر فقد كان عاملاً في مصنع للنسيج يقع على بعد يسير من المدينة. كان الوالدان تقيين، إلا أن الأخ الأكبر يعقوب التحق بتنظيمات الشغيلة وأخذ يظهر ميولاً شيوعية، ولا شك أن ذلك سَبَّبَ ارتباكاً كبيراً في المنزل، فقد كان الأب يربط بشدة بين الشيوعية وبين العلاقات السوفيتية المصرية، وبالنتيجة بين الشيوعية وبين الحرب الإسرائيلية العربية، وفي أحيان كثيرة كان الجدل العنيف بين الأب ويعقوب يوشك أن ينتهي إلى انفصام في العائلة التي لم تعتد على هذا النوع من التناقض، وقد وصلت الأمور في توترها إلى الذروة حين ألقى البوليس المغربي القبض على يعقوب في الاضطرابات العمالية التي وقعت في عام 1963، وذاقت العائلة كلها من نتائج هذا الحادث، وتعرضت مثل عوائل العمال جميعاً في تلك الفترة إلى تشديد مبالغ فيه من قبل السلطات التي واجهت النشاط النضالي المتزايد لاتحاد الشغيلة المغربي وللتحالف الذي اشتد آنذاك بين الاتحاد هذا وبين الاتحاد الوطني لطلبة المغرب وبين عدة أحزاب سياسية تقدمية بالمزيد من العمل القمعي، وفي تلك الفترة وجد الأب في اتصال أجراه معه رجل فرنسي فرصة للخلاص من كل تلك الشدّة، وقد انتظر على مضض خروج يعقوب من السجن، فرحل مع العائلة على متن زورق صغير مع عدد آخر من الأشخاص إلى الساحل الإسباني، ومن هناك بدأت الرحلة الأكبر إلى إسرائيل. إلا أن يعقوب قرر معانداً أن يبقى في فرنسا، فلم تكن خطط الوكالة اليهودية ودوائر الهجرة لتروقه، وهكذا مضى إلى الأحياء الباريسية التي يوجد فيها العمال المغاربة حيث وجد الكثيرين من رفاقه القدامى. أما إبراهيم الذي صار منذ تلك اللحظة أبراهام، فقد وصل في أواخر 1965 مع عائلته إلى ميناء حيفا، وكان الأب محظوظاً إذ أسكن في ضاحية قريبة من تل أبيب، وقد تمكّن في أقل من عام أن يشارك رجلاً آخر في ملكية دكان صغيرة لبيع الأقمشة والملابس الجاهزة. أما ابراهام فقد أصبح عاملاً في معمل للنسيج يقع غير بعيد من حيث يسكن، إلا أنه منذ حرب 1967 فضّل أن يظلّ جندياً في الجيش.

شيئاً لم يسمعه أحد بوضوح، وعاد فضحك من جديد لفترة قصيرة وصمت حين رمقه الضابط[12] بشدّة، أما أبو القاسم فقد شعر بأنه قد اصطيد، وبأن أكفّاً جبّارة تطبق على صدره، وأنه بحاجة إلى سعاد الآن أكثر من أي وقت مضى.. أترى انتهى الصمت.؟ أصار بوسعه أن يقول لهم بأن ذلك الفتى المضرّج الممدد على الطاولة في مخفر أريحا هو ابنه قاسم.؟ أم أن ذلك كله قد أضحى الآن سرّاً أكثر حاجة للكتمان مما كان في أي وقت مضى.؟ لقد أحس فجأة بأنه مؤتمن على شيء خطير لا يعرف ما هو بالضبط، وربما كانت حياة سعاد نفسها، بل حياة هؤلاء الشبان الثلاثة الواقفين ووجوههم إلى الحائط، بل ربما حياة ذلك الطفل الصغير أيضاً. معلّقة في كلمة واحدة قد يلفظها في أية لحظة دون أن يدري، أيمكن لذلك كلّه أن يكون حقيقياً..؟

– إنها باقة زهر يا سيدي، وهي لا تعني شيئاً خطيراً على الإطلاق. قلت لنفسي وأنا أمرّ من هنا: هذا بيت صديقي القديم، وابنته وحيدة فيه، ولا بأس لو حملت لها باقة زهر!

– لا فائدة من الكذب أيها الشيخ الخبيث. سوف ترى بعد برهة أن الصدق هو أقصر الطرق إلى السلامة.. أتقول الحقيقة الآن أم ماذا.؟ زهر يا سيدي.. زهر.

– هش..

وفي الخارج جاء الصوت خافتاً في البدء، ثم أخذ يعلو شيئاً فشيئاً، كانت ثمة خطوات تصعد الدرج، وشعر أبو القاسم بأن الأمر آخذ في التعقّد، وأن الفخ المنصوب في الغرفة إنما يتعلّق بقضية أكثر خطراً مما يعتقد، وبعد برهة دقّت يد ما خشب الباب. وفي اللحظة التالية انقضّ الجنديان، وقد فتح الضابط الباب فجأة، على الرجل الواقف هناك

(12) برتبة كابتن، وكان جندياً محترفاً مع الفرقة اليهودية في الجيش البريطاني منذ الحرب العالمية الثانية، وقد نال أوسمة عدة لخدماته في المخابرات.

وقذفاه إلى الداخل.

وامتلأت الغرفة فجأة بجلبة غريبة، وأخذ الطفل الذي كان قد ركن إلى الصمت قبل برهة يبكي من جديد، بنشيج أكثر مرارة، فيما مضى الجنديان يفتشان الرجل بعنف وشراسة ثم ساقاه إلى الحائط، وأرغماه على رفع ذراعيه إلى الأعلى ووجهه نحو الجدار، وعاد الجنديان فوضعا الأوراق التي انتزعاها من جيوبه على الطاولة، ووقفا وراء الضابط الذي قال بصوت يملؤه رنين الانتصار:

– صيد ثمين اليوم، هذه الملعونة سعاد كانت تعيش تحت بصرنا ونحن لا نعرف، وها هم أفراد العصابة يتقاطرون إلى بيتها واحداً إثر الآخر.. أنت.! ما اسمك..؟ وأجاب الرجل الجديد ووجهه ما يزال إلى الحائط: إنني زياد حسين والد الطفل الجالس هنا يا سيدي.. جئت أفتش عنه بعد أن تأخر.

قال الضابط:

– إذن أنت الذي أرسلته..

– نعم يا سيدي، خبزنا صباح اليوم صدراً من الكنافة، كعادتنا في الحيّ بعثنا مع وليد صحناً لسعاد.. وعندما تأخر وليد جئت أبحث عنه..

ولأول مرة منذ أن دخل الغرفة شهد أبو القاسم صحن الكنافة على الطاولة، وكانت القشرة الشقراء تلمع من فرط ما أشبعت قطراً، وتساءل بينه وبين نفسه: «أتراها قصة حقيقية.؟ أيمكن أن يكون زياد هذا والد أو شقيق فتى ما استشهد ذات يوم وهو يأتي كل شهر لسعاد كي يأخذ خمسة دنانير.؟»

وقال الضابط فجأة:

– استدر وانظر هنا..

واستدار زياد، فبدا وجهه شديد الصفرة، كانت عيناه كبيرتين، وربما

بسبب حجمهما بدا خائفاً أكثر مما كان صوته يوحي، وكان أول ما فعله أن نظر حيث كان الطفل جالساً ينشج بهدوء، وهزّ رأسه هزّة خفيفة جعلت الطفل يصمت، ثم أخذ ينظر حواليه متفحّصاً الموجودين، وسأله الضابط: هل تعرف أياً من هؤلاء.؟

– لست أعرف أحداً، بل إنني أكاد لا أعرف سعاد نفسها، ولكن العادات يا سيدي تقتضي منا أن نرسل مثل هذه الهدايا الصغيرة إلى جيراننا.

وأشار نحو الصحن، وافتعل ابتسامة سمجة: إنني غالباً ما أفشل في صنع الكنافة، وأخشى أن يكون طعم هذا الصحن هو الجريمة الوحيدة التي ارتكبتها.. وضحك وحده ضحكة صغيرة، ثم صمت دون أن يخفي حرجه، وعاد يتودد بعد لحظة:

– هل أستطيع أن آخذ وليد يا سيدي وأذهب إلى البيت.؟ إن أمّه ستشعر بالقلق؟

– هش..

– هل حدث شيء لسعاد يا سيدي.؟ هل أمسكتموها.؟

– لماذا تسأل.؟

– لأنها جارتنا..

– ماذا تعرف عنها.؟

– إنها طالبة، تقيم هنا في الصيف، ونادراً ما يزورها أحد، وقد أعطت هذه السنة بعض الدروس في «الأونروا»

– وأين هي الآن.؟

– لست أدري يا سيدي، كنت أعتقد أنها هنا، ولذلك أرسلت لها صحن الكنافة.. ماذا فعلت يا ترى.؟

ونهره الضابط بحركة من يده، وأخذ يتجوّل في الغرفة وهو يفكّر، ثم سأل فجأة:

– أتعتقد أنها ستعود إلى هنا.؟

– من؟

– سعاد طبعاً أيها الغبي..

– لست أدري.. هذا بيتها على أي حال، وكل إنسان يعود إلى بيته..

وقاطعه الضابط بحدّة:

– إلا إذا استطاع الهرب قبل ذلك.

وخيم الصمت من جديد، فيما ظل زياد[13] واقفاً ينظر إلى طفله بحيرة، وفجأة حدث شيء غريب لم يلحظه إلا أبو القاسم، فقد التقت عيناه بعيني زياد، ولمح فيهما بومضة تشبه البرق رسالة قصيرة، تشبه أن يقول المرء للآخر: «أيها الرجل، إننا نعرف بعضنا، فاطمئن..»[14]

(13) لم يكن زياد حسين يعرف سعاد معرفة حقيقية، كان يعرف أهلها بصورة غامضة، وكان معجباً بها من بعيد لكونها أظهرت عدة مرات خلافاً مع والدها الذي كان يحتقره بصورة ما، كان زياد عضواً قديماً في الحزب الشيوعي، ثم ترك الحزب منذ بدأت المصاعب تشتد في أوائل الستينات، ولكنه لم يترك حماسه له. كان أستاذاً في المدرسة الثانوية، وكان يُعتَبر من المثقفين الأكثر اطلاعاً في نابلس، وربما كان هذا بالذات ما جعل كراهيته لوالد سعاد تقليداً قديماً لا يعرف كيف نشأ، وقد ظلت هذه الكراهية حتى بعد موته. وقبل ذلك كان قد سمّاه «أكاكي أكايفتش» وكان بالفعل يرى فيه تجسيداً حقيقياً لبطل «غوغول» في قصة «المعطف» ويشاهد في تصرفاته أنموذجاً لذلك البيروقراطي ضحية البيروقراطية المضحك الذي لا يكف عن النسخ، ولهذا بالذات أعجب بسعاد بالرغم من أن سعاد في تلك الفترة لم تكن لتخفي، شأنها شأن أعضاء حزب البعث وأعضاء حركة القوميين العرب، كراهيتها للشيوعيين وحملاتها الدائمة عليهم.

(14) الصحيح أن تلك النظرة لم تكن رسالة بالمعنى الحقيقي، والصحيح أكثر أنها كانت تشبه أن يقول المرء للآخر: «ها! هذا هو أنت إذن!» وسببها لا ينفصل عما حدث ليلة أمس، فعند منتصف الليل قرع باب بيته بشدة، وإذا بسعاد التي لا يذكر أنها زارتهم من قبل، تقف هناك مضطربة، وقد أدخلها وأيقظ زوجته ولم يشعل الضوء، وقالت له سعاد بسرعة: «أريد مساعدتك أيها الرفيق زياد.» ولاحظ هو كلمة «رفيق» التي هزّت فيه مشاعر قديمة وحارّة، ومع ذلك قال لنفسه: «**الله الله** يا زمان.. الحركيون يقولون رفيق..» وأخذ سعاد دون أن يتكلم وأجلسها في الصالون ومضت تقول: «لقد قبض الإسرائيليون على إحدى الرفيقات، وأخشى أن تعترف بعلاقتها بي. لا أستطيع الذهاب إلى المنزل» وأحس بشيء من الخوف.. إلا أنها استطردت: «القصة هي أنني لا أريد أن أثير شكّهم في حال عدم اعتراف الرفيقة، ولذلك فإنني لن أركن إلى الفرار إلا إذا تأكدت من أنهم

وأحس أبو القاسم بكنز غامض يملأ صدره، وأن عليه الآن أن يكون أكثر حذراً، فثمة أمور كبيرة تجري، وهو بلا ريب يلعب فيها دوراً كبيراً دون أن يعرف على وجه التحديد ما هو دوره هذا، على أنه تيقّن الآن من أن هذا الرجل، الباحث بقلق عن ابنه، هو الذي ينبغي أن يقود خطواته منذ هذه اللحظة، واستجمع أبو القاسم أطراف شجاعته وقال:

– ألا تستطيع أن تقول لهم يا سيدي إنني رجل بريء، وأن عليهم إطلاق سراحي..؟

وحدث شيء غريب في الغرفة، إذ أخذ الجميع يضحك، بما في ذلك الأستاذ زياد والضابط.. قال زياد:

– ماذا تحسبني أيها العجوز؟ إنني في وضع أكثر سوءاً من وضعك..

وقال أبو القاسم مصرّاً:

– إنها باقة زهر يا سيدي.. باقة زهر فقط.

– ولماذا تكون باقة الزهر أكثر براءة من صحن الكنافة.؟

– وصاح الضابط:

– هش..

وقال زياد بلهجة ضارعة، متجهاً نحو الضابط:

اكتشفوا كل شيء.. هل تستطيع غداً أن تستكشف لي البيت.؟ هل جاؤوا أم أنهم....» أخذت نفساً عميقاً وأكملت: «أريد مساعدتك.. إن المسألة معقّدة.. أسلوبهم هو أن يتسللوا إلى البيت كي يقبضوا على أكبر عدد ممكن من المتصلين بي، لا أريدهم أن يقبضوا على طلال..» وبعد ذلك أمضى زياد وسعاد طيلة الليل وهما يرسمان الخطّة، وقد اهتديا إلى النقطة التي يكتشفان فيها تفاصيل ما سيحدث في بيت سعاد عن طريق إرسال وليد بصحن الكنافة منذ الصباح، وفي حال تأخره تنطلق سعاد شرقاً، ويصبح على زياد أن يتدبر باقي المهمات.. «سيأتي رجل عجوز اسمه أبو القاسم، إذا أدركته قبل الوصول إلى البيت دعه يأخذك إلى طلال، إنه وحده الذي يعرف أين يجده...» وقد مضت سعاد متنكّرة باتجاه النهر بعد ربع ساعة من غياب وليد الذي لم يكن يعرف شيئاً عن دوره.

– ألا أستطيع يا سيدي أن آخذ ابني وليد وأمضي.؟ إن صديقه طلال ينتظره..

– هش..

ولمح أبو القاسم مرة أخرى تلك الرسالة الغامضة تومض كالبرق في عينيّ زياد وهما تطلان عليه وكأنهما تعبران به، ولكنهما كانتا تحملان رسالة، وأبو القاسم يعرف أكيداً أنهما كانتا كذلك، إلا أنه لم يكن قادراً على فهمهما. ثمة علاقة ما بين باقة الزهر وصحن الكنافة، وربما كان الطفل الذي اسمه طلال هو جزء من تلك الرسالة الغامضة، ولكن أبا القاسم لم يكن ليستطيع أن يفهم أولئك الأساتذة أو يتجاوب مع إشاراتهم، حتى في مواقف أكثر طلاقة من هذا الموقف، وأورثه هذا الشعور غضباً مهيض الجناح، فضرب راحتيه على ركبتيه وقال:

– لست أفهم شيئاً.. لست أفهم شيئاً..

ونظر إلى زياد، آملاً أن تستطيع عيناه الشائختان أن ترسلا شيئاً إلى الرجل الواقف هناك، فيما أخذ الضابط والجنديان ينظران بفضول إلى الرجل العجوز وهو يواصل ضرب راحتيه على ركبتيه، وأخيراً قال الضابط:

– «إن قصتك لم تنته أيها الشيخ الخبيث، بل إنها لم تكد تبدأ، فأحسن لك أن تلتزم الصمت، أما أنت فسوف تظل معهم.. إن كل من يأتي إلى هذا البيت، طوال اليوم والأيام القادمة، هو متهم بالضرورة، التحقيق سينظر في أمر إطلاق سراحكم أو اعتقالكم، والآن لا أريد أن أسمع صوتاً..»

وصاح زياد:

– ألا نستطيع أن نرسل كلمة إلى أهالينا.؟

– قلت لكم أن تصمتوا..

– ألا تستطيع أن تقول لنا لماذا نحن هنا.؟ ماذا فعلت سعاد.؟

– هذا ليس من شأني، ستعرفون كل شيء في التحقيق..

– ما ذنب هذا الشيخ.؟ إنه يبدو أكثر براءة منا جميعاً، ألا تسمحون له بالذهاب إلى بيتي ليطمئن زوجتي، ويطمئن طلال.؟

– قلت لك أغلق فمك، وإلا أغلقته بالقوة..

وأخذ أبو القاسم ينظر مجدداً إلى زياد، غير قادر على فهم ما يجري على وجه التحديد، وقد استطاع أن يلتقط للمرة الثانية اسم «طلال»، ولكنه لم يكن ليستطيع أن يفهم ماذا يعني هذا كله، وماذا يتعين عليه أن يفعل، ومضى يتململ في مقعده، مستعيداً في ذاكرته صورة طلال القديمة، الذي صار يراه تماماً منذ أن تسلمته سعاد. إنه يدرك أن زياداً يريد أن يقول شيئاً عن طلال، ولكن أي طلال.؟ وما علاقته هو بالأمر.؟ لقد تذكر الآن أنه مرة سأل سعاد إن كان طلال يعمل معهم. فضحكت وقالت: «لولا طلال لكانت حالتنا حالة.. طلال يا أبا القاسم رجل، رجل قادم من تحت..» أيمكن أن يكون الأمر على هذه الخطورة.؟ إن المفتاح بيد الأستاذ زياد، وهو وحده الذي يجيب على هذه الأسئلة، ولكن لماذا لا يفعل.؟ إذا كان الأمر خطيراً على هذه الصورة، فلماذا لا يقدم الأستاذ زياد على التصرّف.؟ وفجأة سأل أبو القاسم نفسه: لو كان قاسم هنا مكان الأستاذ زياد، كيف كان سيتصرّف.؟ ثم عاد فسأل نفسه مرة أخرى: لو كان مكاني، ماذا كان يفعل.؟ وقاطعه صوت مكتوم يشبه خطوة خائفة، وكان يمكن لهذا الصوت أن يعبر دون انتباه لو لم يتحرك الضابط بهدوء، ويرفع سلاحه عن ركبتيه وهو ينظر نحو الجنديين اللذين اتجها نحو الباب دون أن يصدرا أي صوت، ومضت فترة من الوقت خيَّم فيها صمت عميق، ثم صدر ذلك الصوت المكتوم لخطوة خائفة مرة أخرى، وبدت وكأنها في أول السلم، وعاد الصوت يخطو، وكأنه يصعد بحذر. ودون أن يتخذ قراره بصورة مسبقة، انتصب أبو القاسم وصاح:

– لماذا تقبضون علينا.؟ ماذا فعلنا.؟ إننا أبرياء.

وانقض عليه الضابط وصفعه بقفا كفّه فألقاه على الأرض، واندفع الجنديان نحوه وجرّاه بعيداً إلى الداخل، فيما ركض الضابط باتجاه الباب، وألصق أذنه هنيهة على الخشب، ثم فتحه بعنف واتجه إلى الخارج.

وضع أحد الجنديين ركبته على صدر أبي القاسم، وصوّب فوهة الرشاش إلى رأسه، فيما أخذ أبراهام يراقب بقية المحتجزين بحذر، وما لبث الضابط أن عاد، وأغلق الباب وراءه بإحكام وهدوء، ثم أشار للجنديين فأجلسا أبا القاسم على المقعد. كان فمه ينزف خيطاً رفيعاً من الدم يتسرب في شعر لحيته الشائب، ولكنه بدا في حالة غير خطرة، وقال له الضابط بهدوء مبالغ فيه:

– لقد تعمدت ذلك أيها الثعلب العجوز.

وقال أبو القاسم بوهن:

– تعمدت ماذا يا سيدي.؟

– لقد صرخت كي يهرب..

– من؟

– أنت الذي ستقول لنا من.. يا إلهي.! كنت على وشك أن أعتقد أنك عجوز بريء.. أما الآن فقد تيقنت من كل شيء، لم أكن على خطأ حين شككت بهذه الباقة اللعينة..

– إنها باقة زهر يا سيدي.. برقوق نيسان..

– ها!

وتناول الضابط عصا قصيرة عن الطاولة، دقيقة كأنها من الخيزران، وأشار بها نحو زياد، ثم أخذ ينقلها كمؤشر بين زياد وأبي القاسم. وأخيراً اتجه نحو زياد:

– أرأيت أيها الثرثار.؟ أرأيت.؟ كنت أنت الذي اقترحت أن نطلق سراح هذا الشيخ الخبيث لأنه يبدو بريئاً.! ها! هذا الشغل شغلنا،، إنه يعتقد الآن أنه أتاح فرصة الفرار لأحدكم. كم هو مخطئ هذا العجوز المسكين.! سننتزع اسمه مثلما يُنتزَع الضرس النتن.

وتنحنح زياد، وهو ما يزال واقفاً مكانه، وقال للضابط:

– هذا الشغل شغلكم يا سيدي، ولكن إذا سمحت لي أرجو ألا تقلق كثيراً، فقد يكون الشخص الذي مرّ أمام السلم هو الطفل طلال، صديق وليد، جاء يسأل عنه وخاف عندما سمع الجلبة فهرب.. ألم أقل لك يا سيدي قبل ذلك إن طلال ينتظر وليد ليلعب معه.؟

– وهزّ الضابط رأسه مرتاباً وهو يبتسم ابتسامة العارف الذي لا يسهل خداعه، وقال بصوت لا يكاد يسمع:

– لم تكن الخطوة خطوة طفل..

ومرة أخرى، بمثل لمح البرق، شهد أبو القاسم في عينيّ زياد، وهما تعبران به ومضة تشبه الرسالة.



القميص المسروق

وقصص أخرى

1 القميص المسروق

رفع رأسه إلى السماء المظلمة وهو يقاوم شتيمة كفر صغيرة أوشكت أن تنزلق عن لسانه، واستطاع أن يحس الغيوم السوداء تتزاحم كقطع البازلت، وتندمج ثم تتمزق.

إن هذا المطر لن ينتهي الليلة، هذا يعني أنه لن ينام، بل سيظل منكباً على رفشه، يحفر طريقاً تجر المياه الموحلة بعيداً عن أوتاد الخيمة، لقد أوشك ظهره أن يعتاد ضرب المطر البارد.. بل إن هذا البرد يعطيه شعوراً لذيذاً بالخدر.

إنه يشم رائحة الدخان، لقد أشعلت زوجه النار لتخبز الطحين، كم يود لو أنه ينتهي من هذا الخندق، فيدخل الخيمة، ويدس كفيه الباردتين في النار حتى الاحتراق، لا شك أنه يستطيع أن يقبض على الشعلة بأصابعه، وأن ينقلها من يد إلى أخرى حتى يذهب هذا الجليد عنهما.. ولكنه يخاف أن يدخل هذه الخيمة، إن في محجَرَيْ زوجه سؤالاً رهيباً ما زال يقرع فيهما منذ زمن بعيد، لا، إن البرد أقل قسوة من السؤال الرهيب. ستقول

له إذا ما دخل وهي تغرس كفيها في العجين، وتغرس عينيها في عيونه: هل وجدت عملاً؟ماذا سنأكل إذن؟ كيف استطاع (أبو فلان) أن يشتغل هنا؟ وكيف استطاع(أبو علنتان) أن يشتغل هناك؟ ثم ستشير إلى عبد الرحمن المكور في زاوية الخيمة كالقط الكبول، وستهز رأسها بصمت أبلغ من ألف ألف عتاب.. ماذا عنده الليلة ليقول لها سوى ما يقوله في كل ليلة..؟:

–هل تريدينني أن أسرق لأحل مشاكل عبد الرحمن؟

ونصب قامته بهدوء لاهث، ثم ما لبث أن عاد، فاتكأ على الرفش المكسور، وأنشأ يحدق بالخيمة الداكنة، مستشعراً قلقاً عظيماً وهو يسأل نفسه:

– وماذا لو سرقت؟

إن مخازن وكالة الغوث الدولية تقع على مقربة من الخيام، إن قرر أن يبدأ فهو يستطيع بالتأكيد أن ينزلق إلى حيث يتكدس الطحين والرز، من ثقب ما سيجده هنا أو هناك، ثم إن المال ليس حلال أحد، لقد آتى من هناك، من عند ناس قال عنهم أستاذ المدرسة لعبد الرحمن إنهم «يقتلون القتيل ويمشون في جنازته» فماذا يضر الناس لو أنه سرق كيس طحين.. كيسين.. عشرة؟ وماذا لو باع شيئاً من هذا الطحين إلى واحد من أولئك الذين يتمتعون بقدرة عظيمة على استنشاق روائح مسروقات، وبقدرة أعظم في المساومة على ثمنها؟

ولذت له الفكرة، فدأب بعزم أشد على إتمام حفر الخندق فيما حول الخيمة وأخذ يسأل نفسه من جديد أن لماذا لا يبدأ مغامرته منذ الآن؟ إن المطر شديد والحارس مشغول بأمر البرد أكثر من انشغاله بمصلحة وكالة الغوث الدولية، فلماذا لا يبدأ الآن؟ لماذا؟

– ماذا تعمل يا أبا العبد؟

ورفع رأسه إلى جهة الصوت، وميز شبح أبي سمير قادماً من بين

صفَّي الخيام المغروسة إلى ما لا نهاية الظلمة..

–إنني أحفر طحيناً..

– تحفر ماذا؟

– أحفر.. أحفر.. خندقاً..

وسمع ضحكة أبي سمير الرفيعة التي سرعان ما تلاشت في ثرثرته:

– يبدو أنك تفكر بالطحين، إن التوزيع سيتأخر إلى ما بعد الأيام العشرة الأولى من الشهر القادم، أي بعد خمسة عشر يوماً تقريباً، فلا تفكر منذ الآن إلا إذا كنت تنوي أن تستعير كيساً أو كيسين من المخزن..

ورأى ذراع أبي سمير تشير باتجاه المخازن، ولمح على شفتيه السميكتين ظلاً لابتسامة خبيثة، وشعر بصعوبة الموقف، فعاد يضرب الأرض برفشه المكسور.

– خد هذه السيكارة.. ولكن لا، إنك لن تستفيد منها، فالمطر مزعج.. لقد نسيت أن السماء تمطر، عقل من الطحين.. مثل الحجر..

وأحس بضيق يأخذ بخناقه، إنه يكره أبا سمير منذ زمن بعيد، هذا الثرثار الخبيث:

– ما الذي أخرجك في هذا المطر؟

– خرجت.. خرجت لأسألك إن كنت تريد المساعدة.

– لا.. شكراً..

–هل ستحفر طويلاً؟

– معظم الليل..

– ألم أقل لك أن تحفر خندقك في النهار؟ إنك دائماً تذهب إلى حيث لا أدري وتترك الخيمة.. هل تذهب للبحث عن خاتم سليمان؟

– لا.. عن شغل..

ورفع رأسه عن الرفش وهو يلهث..

– لماذا لا تذهب لتنام وتتركني وحدي؟

واقترب منه أبو سمير بهدوء جم ووضع كفّه يهزها ببطء وهو يقول بصوت مخنوق:

– اسمع يا أبا العبد، إن رأيت الآن كيس طحين يمشي من أمامك فلا تذع الخبر لأحد!

– كيف؟

قالها أبو العبد وصدره ينبض بعنف، وشم رائحة التبغ من فم أبي سمير وهو يهمس وقد فتح عيونه على وسعها:

– هناك أكياس طحين تمشي في الليل وتذهب إلى هناك..

– إلى أين؟

– إلى هناك..

حاول أبو العبد أن يرى إلى أين يشير أبو سمير ولكنه وجد ذراعيه مسدلتين على جنبيه، بينما سمع صوته يهمس ببحة عميقة:

– ستأخذ نصيبك.

– هل هناك ثقب تدخلون منه؟

ورفع أبو سمير رأسه نافياً ومفرقعاً لسانه بمرح، ثم همس بصوت نصف مبحوح:

– إن أكياس الطحين تخرج لوحدها.. إنها تمشي!

– إنك مجنون..

– لا، بل أنت مسكين.. اسمع، ولندخل في الموضوع مباشرة، إن ما علينا هو أن نخرج أكياس الطحين من المخزن ونذهب بها هناك، إن الحارس سيمهد لنا كل شيء كما يفعل دائماً، إن الذي سيتولى البيع ليس أنا، ولا أنت، إنه الموظف الأميركي الأشقر في الوكالة.. لا، لا تعجب، كل شيء يصبح جائزاً ومعقولاً بعد الاتفاق.الأميركي يبيع، وأنا أقبض، والحارس يقبض.. وأنت تقبض، وكله بالاتفاق، فما رأيك؟

وشعر أبو العبد أن القضية أشد تعقيداً من سرقة كيس أو كيسين، أو

عشرة، وراوده شعور لزج بالقرف من المعاملة مع هذا الإنسان.. ثقيل الدم كما تعارفوا عليه في المخيم كله.. ولكنه في الوقت ذاته راقه أن يعود يوماً إلى خيمته وفي يده قميص جديد لعبد الرحمن، وأغراض صغيرة لأم العبد بعد هذا الحرمان الطويل، كم ستكون ابتسامتاهما جميلتين، إن ابتسامة عبد الرحمن، لوحدها، تستحق المغامرة لا شك، ولكنه لو فشل.. أي مصير أسود ينتظر أم العبد وولدها.؟. يومها سيحمل عبدالرحمن صندوق مسح الأحذية ليتكور في الشارع هازاً رأسه الصغير فوق الأحذية الأنيقة، يا للمصير الأسود! ولكنه لو نجح فسيبدو عبد الرحمن إنساناً جديداً، وسيقتلع من عيون زوجه ذلك السؤال المخيف. لو نجح، فستنتهي مأساة الخندق في كل ليلة ممطرة، وسيعيش حيث لا يستطيع أن يتصور الآن..

– لماذا لا تترك هذا الخندق الملعون، ابدأ قبل أن تشرق الشمس؟

نعم لماذا لا يترك الخندق..؟ إن عبد الرحمن يلهث من البرد في طرف الخيمة، ويكاد يحس أنفاسه تلفح جبينه البارد.. كم يود لو أنه ينتشل عبد الرحمن من هزاله وخوفه، لقد أوشك المطر أن ينقطع، وبدأ القمر في السماء يمزق طريقاً وعراً.

وأبوسمير، ما زال واقفاً أمامه كالشبح الأسود، غارساً قدميه الكبيرتين في الوحل، رافعاً ياقة معطفه العتيق إلى ما فوق أذنيه، إنه ما زال واقفاً ينتظر، هذا الإنسان الواقف أمامه، يحمل معه قدراً جديداً غامضاً، يساومه ليرفع معه الأكياس من المخزن، إلى مكان ما، يأتيه الأميركي كل شهر ويقف أمام أكوام الطحين يفرك راحتيه النظيفتين، ويضحك بعيون زرقاء كعيون قط يتحفز أمام جحر فأر مسكين.

– منذ متى وأنت تتعامل مع هذا الحارس وذلك الموظف؟

– هل تريد أن تحقق معي أم تأخذ ثمن الطحين وتذهب لتشتري الشياطين؟اسمع إن هذا الأميركي صديقي، وهو إنسان يحب العمل المنظم، إنه يطلب مني دائماً أن أضع الوقت بالمقدمة. وهو لا يحب التأخير في المواعيد.. علينا أن نبدأ الآن. أسرع.

و عاد يتصور الأميركي واقفاً امام أكياس الطحين، يضحك بعيون زرقاء ضيقة ويفرك راحتيه النظيفتين بحبور وطمأنينة، فشعر بضيق غريب، وخطر له أن ذلك الأميركي كان يبيع الطحين في الوقت الذي كان يقول فيه لرجال المخيم ولنسائه إن توزيع الإغاثة سيتأجل إلى نهاية الأيام العشرة الأولى من الشهر، وأحس بنقمة طاغية، هي صدى لإحساساته يوم كان يرجع من المخازن ليقول لزوجته بصوت كسير إنهم أجلوا توزيع الطحين عشرة أيام، كم هي مؤلمة خيبة الأمل التي كانت ترتسم في وجهها الأسمر المجهد، لقد كان يحس الغصة تتعلق بألف ذراع في حنجرته وهي تنظر بصمت مريع إلى كيس الطحين الفارغ يتأرجح على ذراعه كالمشنوق.. لقد كانت تعني في نظرتها تلك أن عشرة أيام ستمضي قبل أن يجدوا طحيناً للأكل. كان يبدو له أيضاً أن عبد الرحمن يفهم الموقف تماماً، لقد كان يكف عن طلب الأكل بإلحاح..

في كل خيام قرية النازحين كانت العيون المتلهفة تقع في خيبة الأمل ذاتها، كان على كل طفل في المخيم أن ينتظر عشرة أيام ليأكل خبزاً. هذا إذن هو سبب التأجيل، أبو سمير الواقف أمامه كالشبح الأسود، غارساً قدميه في الطين قلقاً لمصير مساوماته، هو والأميركي الذي يفرك راحتيه النظيفتين أمام أكوام الطحين وهو يضحك بعيون زرقاء ضيقة..

لم يدر كيف رفع الرفش إلى ما فوق رأسه وكيف هوى به بعنف رهيب على رأس أبي سمير، وهو يصيح في وجهه إن الطحين لن يتأجل توزيعه هذا الشهر..

كان لا يزال راغباً في أن يراه يبتسم لقميص جديد..

فأخذ يبكي..

2 إلى أن نعود

.. مع أشعة الشمس التي كانت تأكل رأسه وهو وحيد في صحراء النقب، كان يسمع صخب أفكاره في رأسه كأنها مجموعة مسامير تدق.. ولا تنغرس.

إن أنفه يعمل الآن تماماً كما تعمل البوصلة، وهو يشعر أنه يقترب من هدفه، إنه يعجب لنفسه كيف لم ينقطع عن التفكير العنيف طوال هذه الساعات الممضة، لقد فكر في هذه الساعات كما لم يفكر أبداً طوال ثماني سنوات.

ويغرس قدميه في الرمال الناعمة، ويقتلعها كما تقتلع قطعة الخشب العتيقة عن غراء لم يجف بعد كما يجب، ثمة أحاسيس ضخمة تمتلك عنه ذكرياته، إن هذه الأحاسيس لتتداخل في بعضها وتتشابك حتى ليشعر أنها لازمته زمناً طويلاً، ويصعب عليه الآن أن يتصور نفسه كيف كان بدونها.. إنه عطشان إلى حد يشعر فيه بأن حلقه أضحى جافاً جامداً، فلم

يعد ثمة ضرورة لبقائه، ويشعر بالتالي أنه تعب، مرهق، يكاد يتهاوى، كأنما انتهى لتوه من شد قارب كبير من البحر إلى رمل الشاطئ المبلول لكنه مع هذا كله، كان يسير، مندفعاً كأنه يسابق نفسه، كان نصفه العلوي يتقدم منحنياً عن بقية جسده.. فالرمل الناعم يعوق سرعة قدميه، كان قصيراً، أسمر البشرة، محروقاً، لم يكن في وجهه أي شيء يستلفت النظر لأول وهلة، كل ما هنالك أن لفمه شفتين رقيقتين تنطبقان في تصميم، إن شكل وجهه يثير في الإنسان لدن تدقيق النظر شعوراً بأنه يشاهد حقلاً صغيراً، بل وأكثر من هذا، فإن الخطين اللذين يشقان جبهته يحب الإنسان أن يشبههما بآثار «شفرات» محراث مر لتوه من ذلك المكان..

لقد بدأت رائحة أرضه تذيب أحاسيسه، شيء جميل أن يشم المرء جزءاً من ماضيه، إن رأسه الآن تنفتح كأنها صندوق عرس منقوش بالصدف ويحوي كل شيء، ويرى فيه داره الصغيرة الرطبة، وزوجه ترش التراب بالماء، ثم يرى نفسه آتياً من حقله بقدميه الموحلتين، إن الصورة يراها أمامه هكذا، بل وأكثر من ذا، كأنه يستعيد منظراً عاشه قبل دقائق فحسب، إنه يرى الصورة بكل تقاطيعها الدقيقة، حتى ليرى نفسه كيف يسير، لم يتيسر له قبل الآن أن يراقب سيره بهذا الوضوح وهذا الإمكان.

وهو يقترب من أرضه، هكذا يشعر في أعماقه عندما بدت له أول (بيارة) من (بيارات) أهل قريته، ابتدأ الصوت الذي ودعه على فوهة النقب الجنوبية يدق رأسه، ويتجاوب صداه في جسده:

– «هي أرضك، ألم تعش هناك؟ حسناً، إنك تعرفها أكثر من سواك، في واحد من الحقول بنى اليهود خزاناً يسقي المستعمرات القريبة، أعتقد أنك فهمت، أن الديناميت الذي تحمله يكفيك...»».

لم يتكلم بعدها، بل انطلق عبر النقب وحيداً، وحيداً إلا من هذه الزوبعة التي تثور في أعماقه.. وها هي أرضه، حيث درج يلهو، تستلقي في أحضان الجبل باستسلام.

و انزلق بين الحقول الخيالية في حذر، مستمداً من رائحة ترابه شعوراً بقدرة لا تقهر، وأصابعه تطبق على سكينه في تهيؤ «وحشي». إن رأسه تشتط به وتختلط في تاريخ الحقول التي يعرفها جيداً، ويجد عنتاً شديداً في العودة إلى الحقيقة.

وعندما استدار حول حقل كان لأبي حسن – جاره – في يوم من الأيام، رأى نفسه يشد رأسه عالياً وهو يرقب بشعور غامض خزان المياه، يرتفع كأنما ليصل الأرض بالسماء.. ليؤمن لها الماء. لكنه ساءه أن يقف الخزان، هكذا، في الحقل المعطاء.. إنه بوقوفه هذا يشوه إحساساً جميلاً أحسه هو، وجميع جيرانه، طوال حياتهم.. أنهم – الفلاحين – يحسون الأرض إحساساً بينما ينظر سواهم إليها كمشهد عابر، إن أي حقل، يبعث بالفلاح شعوراً تلقائياً بأنه – ذلك الحقل، يلقي على موجوداته ظل الأبوة مهما عظمت، فيشعر الإنسان أنها في حماية قوة غامضة، هائلة، مخيفة، لكنها محببة.

ولكن الخزان يدمر هذا الإحساس، وهو واقف هناك كحقيقة مرة تعطيه نوعاً آخر من المشاعر، بل إنه يحس إحساساً عميقاً ساكناً بأن الأرض نفسها ترفض الخزان.. لا تريد أن تحميه، إنه يعني شيئاً آخر، غير الري والماء، شيئاً كبيراً دامياً كالمأساة.

وحبس أنفاسه وهو يرقب من خلال العواسج أرضه التي تكسب عليها عرقة ليخلقها من العدم، ها هو إذن البيت الصغير الذي كان يأوي إليه مع زوجه أيام العمل المتواصل في موسم الحصاد، فلقد كان بيتاً جميلاً على ما فيه من تواضع، أما الآن، فلقد تهدمت ناحية منه، والناحية الثانية التي تتكئ على صخور الجبل قد علاها الغبار وصبغتها ذرات رصاصية من دخان (الموتور)، إن الخزان يقتحم حياته بشكل مزعج، لقد أقيم في الساحة التي كان يجلس فيها وزوجته قبل أن يناما، يتحدثان فيها عن الذرة والقمح، لقد كان في مكان قائمة الخزان الأقرب للدار شجرة أجاص فريدة من نوعها، كان يحبها ويعنى بها، هنا، قرب الباب المتداعي كانت تنام زوجته ليالي الصيف، كان في تلك الأيام يدعو جيرانه للجلوس، فتسره زوجته وترش الساحة بالماء فتكسبها رطوبة محببة.

وفجأة وبدون أي سابق إعلام سقطت من أعماقه اللاواعية إلى حياته الواعية صورة مدوية مروعة، اجتاحته كالطوفان، هوت إلى حواسه كلها دفعة واحدة فشغلتها كلها، قبل أن يرحلا بيوم واحد.

بيوم واحد فقط، دخل اليهود إلى البيارات، ووجد أن عليه أن يترك ولو إلى حين – ذلك العطاء.. وجرّ زوجته وترك أرضه، وسار... إلا أنه قبل أن يجتاز باب حقله المقطع، دنا إلى زوجته، وألفى نفسه مشدوداً إلى دمعة كبيرة في عينيها الواسعتين.. كأنما هي ذوب حنين... كان يريد أن يقاوم لكنه رأى نفسه محاطاً بالتساؤلات التي غرستها دمعة زوجه في عروقه الزرقاء : إلى أين؟ وأرضك؟ أليس من الأفضل أن تعيد إلى التراب عطاءه لحماً ودماً ؟

ودون أن يتكلم، سحب زوجه من يدها إلى حقله، ولم يستطع أبداً أن يحرر نفسه من النداء الطيب في العيون الواسعة.

في تلك الليلة.. شنق اليهود زوجه على الشجرة العجوز بين الساحة والجبل. إنه يراها مدلاة عارية تماماً... كان شعرها محلوقاً ومربوطاً إلى عنقها وينزف من فمها دم أسود لماع.. لقد شدوا خصرها النحيل شداً مجنوناً، لم يكن في وجهها كله، ما يشير إلى أنها كانت، قبل هنيهة، تملأ الساح رصاصاً وناراً ودماً، في ذلك الوقت، كان هو مربوطاً إلى الشجرة المقابلة يشهد كل ما فعلوه عاجزاً، لقد شدوه إلى الشجرة بحبال الحراثة بعد أن سلخوا ظهره بالكرابيج الجلدية طوال بعد الظهر، وتركوه يشهد كل شيء، تركوه يحدق ويصيح كالمنجون.. لقد حشوا فمها بالتراب عندما قالت له مع السلامة وماتت. وتركوه يمضي كي يموت بالصحراء مع ذكرياته..

إنه لا ينظر الآن إلى هذه الصورة نظرة المشاهد، لا، أبدا، إنها تتفاعل بأعماق أعماقه ويحسها ويراها تنسكب على أعصابه كالرصاص المذاب، إن ذاته تتفاعل الآن مع الماضي بشكل عجيب، لم يستطع أن يخلع نفسه من الصورة الدموية، ولا أن يخلعها من نفسه، كان حاضره يمتزج مع ماضيه مزجاً معقداً، إن صوت استغاثات زوجه وأنينها المقطع المحروق، وصوت أسنانها تمضغ التراب، وصوت حنجرته وهي تطبق على صياحه في بحات هستيرية، كل هذا، كان يمتزج امتزاجاً متشابكاً بصوت الانفجار المروع، وصوت الخزان العملاق يقتلع من الوجود..

ويمتص الدخان الأسود بعض أحاسيسه الدامية، ويرنو إلى الحطام بهدوء صاخب..

لقد عاد في المساء إلى خيمته، كان متعباً منهوكاً، يحسّ كأنما قد تباعدت مفاصله عن بعضها، وعلى عضلاته أن تتوتر إلى الأبد كيما تنشد بينها، وأحس وهو يصافح الإنسان الذي ودعه قبل أن يذهب إلى مهمته أنه ما زال في المعركة التي بدأت منذ زمن بعيد.. وسمع صوته: ماذا ؟ انتهى كل شيء على ما يرام ؟

– وهزّ رأسه في إعياء..وعاد يسمع صوت الرئيس:

– هل أنت تعب؟ وهزّ رأسه نفياً وهمس بصوته العميق المجروح:

– هل أعددت مهمة صباح الغد؟

ووصله صوت رئيسه من بعيد:

ولكنك لا تستطيع أن تتابع غداً.. يجب أن تستريح..

ودون أن يفكر أجاب : بل أستطيع..

– إلى متى تحسب أنك تستطيع أن تواصل على هذه الصورة ؟

قال وهو يسند رأسه على كيس المتفجرات :

– إلى أن نعود..

دمشق 1957/6/24

3 المدفع

لقد عرفه الجميع.. وكادوا أن يعهدوا وجهه كجزء لا ينفصل عن القرية كلها: وجهه المربع يعترضه حاجبان يتصلان ببعضهما البعض بأخدود يعين طرف أنفه العلوي، وأنفه المفلطح تدور بأسفله دائرتان واسعتان فوق شارب رمادي كثيف، يتدلى، فيخفي شفته العليا.. أما ذقنه فلقد كانت عريضة حادة، كأنها قطعت لتوها من صدره، ومن ثم، بردت رقبته الثخينة برداً.

إن سعيد الحمضوني نادراً ما يتكلم عن ماضيه، إنه دائماً يتحدث عما سيأتي، وما ينفك يعتقد أن غداً سيكون أحسن من اليوم، ولكن أهل(السلمة) يتناقلون فيما بينهم، بشيء كثير من المبالغة، أخبار سعيد الحمضوني أيام كان يقود حركات ثورية في 1936، يقولون – هناك في القرية – إن سعيداً أطلق سراحه من المعتقل لأنه لم يدن.. ويقال إنه لم يقبض عليه بعد، ومهما يكن، فهو الآن يملأ القرية، ويربط

الصبيان كل أحاسيسهم وتخيلاتهم التي يرسمونها للرجل الممتاز.. وليد المغامرة القاسية.

لقد عاد سعيد مؤخراً من يافا، وأحضر معه رشاشاً من طراز (الماشينغن) كان قد قضى قرابة أسبوع كامل يجمع ثمنه من التبرعات، ومع أن سكان السلمة كانوا على يقين كبير أن ثمن مدفع من هذا الطراز لا يمكن أن يجمع من التبرعات، فلقد آثروا أن يسكتوا، لأن وصول المدفع الرائع أهم بكثير جداً من طريقة وصوله، فالقرية في أشد الحاجة إلى أي نوع من أنواع السلاح، فكيف إذا حصلت على سلاح من نوع جيد؟.

لقد عرف سعيد الحمضوني ماذا يشتري! إن هذا المدفع، مدفع (الماشينغن) كفيل برد أي هجوم يهودي مسعور، إنه نوع راق من السلاح، والقرية في أشد الحاجة إليه.. فلماذا يفكرون في طريقة وصول المدفع ؟. ولكن سكوت رجال السلمة، لا يعني سكوت نسائها، لقد بقيت المشكلة بالنسبة لهن تلح إلحاحاً قاسياً، ولما لم يجدن من يدلهن على حقيقة الأمر، استطعن أن يقنعن أنفسهن، أن سعيد الحمضوني كان قد سلم في ثورة 1936 مدفعاً من هذا الطراز أبلى من خلفه بلاء حسناً، ثم خبأه في الجبال إلى أن آن أوان استعماله من جديد.. ولكن التساؤل بقي متضمناً في أعمق أعماق السلمة، لم يكن من اليسير أن يجمع الإنسان ثمن مدفع من طراز الماشينغن..

إذن فمن أين أتى سعيد الحمضوني بهذا المدفع ؟ نعم.

من أين؟

المهم.. أن هذا المدفع الأسود صار قوة هائلة تكمن في نفوس أهل السلمة، وهو يعني بالنسبة لهم أشياء كثيرة، أشياء كثيرة يعرفونها، وأشياء أكثر لا يعرفونها.. ولكنهم يشعرون بها، هكذا، في إبهام مطمئن.. إن كل كهل وكل شاب في السلمة، صار يربط حياته ربطاً وثيقاً بوجود

هذا المدفع، وصار من صوته المتتابع الثقيل، أثناء تجربته في كل أمسيتين، نوعاً من الشعور بالحماية..

وكما يرتبط الشيء بالآخر، إذا تلازما، ربط الناس صورة المدفع بوجه سعيد الحمضوني المربع، لم تعد تجد من يفصل هذا عن ذاك في حديث الدفاع عن السلمة، إن سعيد الحمضوني أصبح الآن ضرورة مكملة.. بل أساسية، للمدفع، وعندما يتحدث الناس عن سعيد، كانوا يشعرون أنه أداة من أدوات المدفع المعقدة.. شيء كحبل الرصاص، كقائمتي المدفع.. كالماسورة: كل متماسك لا تنفصل أطرافه عن بعضها البعض. بل وأكثر من ذلك، لقد صار يربط سعيد الحمضوني حياته نفسها ربطاً شديداً بوجود المدفع. كان المدفع يعني بالنسبة له شعوراً هادئاً بالطمأنينة، شعوراً يوحي بالمنعة : فهو دائم التفكير بالمدفع، دائم الاعتناء به، تكاد لا تراه إلا وهو يدرب شباب القرية على استعماله، ويدلهم في نهاية التدريب على المكان الذي وضع فيه خرقة لمسح المدفع، هذا المكان الذي سيصير –فيما بعد – معتاداً. ومع مرور الأيام بدأ سعيد الحمضوني يتغير.. لقد تبدل لونه عن ذي قبل. وبدا كأنه يضمر شيئاً فشيئاً، وأحس شباب السلمة أن سعيد الحمضوني صار يبدو أكبر من ذي قبل، وأنه صار يفقد هذه الحركة الحيّة في وجهه وفي صوته.. إنه صامت الآن، صامت إلى حد يخيل للإنسان معه أنه نسي كيف كان يتكلم الناس، وصار شيئاً مألوفاً أن يجده الناس منطلقاً إلى جنوب السلمة، حيث ركز المدفع، ليجلس وحيداً بقربه إلى العشية.

هذا الرجل الجبار.. الهادئ.. الثائر.. هل كان يعتقد إنسان أنه سيرتجف كذرة من القطن المندوف على قوس المنجد؟ لقد فتحوا عليه باب داره والصباح يوشك أن ينبلج، وتضاخمت أمامه كتلة سوداء، وضربت الأرض وبرز منها صوت أحد رجاله، يدور كالدوامة، ليبتلع

كل إحساس بالوجود :

– المدفع.. لقد أصابه العطب.. إن ماسورته تتحرك بغير ما توجيه.. اليهود يتقدمون.

وأحس سعيد الحمضوني بقوة جبارة تقتلع من جوفه شيئاً يعزّ عليه أن يضيع منه، شيئاً كقلبه لا يستطيع أن يتابع وجوده إلا معه.. كان يشعر بكل هذا وهو منطلق عبر الحقول الباهتة النائمة في آخر الليل.. ووصل إلى حيث كان الرشاش يتكئ كالطفل الميت على الأغصان اليابسة، كل شيء ساكن، إلا طلقات البنادق الهزيلة، تحاول عبثاً الوقوف في وجه الهجوم.. إما المدفع.. إما جهنم..

وهزّ سعيد الحمضوني رأسه وكأنه يواسي نفسه بمصاب ابنه، ثم فكر : أن لا بد من إجراء.. لابد.. شيء قوي كالكلابة يجب أن يمسك الفوهة الهاربة إلى بطن المدفع.. شيء قوي..

– اسمع.. سأشد الماسورة إلى بطن المدفع بكفي. وحاول أن تطلق.. لا يوجد أية دقيقة لتضيع في كلام.. دعنا نجرب،

– لكن..

– أطلق!

– سيرانا اليهود وأنت فوق الحفرة.

– أطلق!

– ستحرق كفيك بلهب الرصاص..

– أطلق.. أطلق!.

وبدأ المدفع يهدر بصوته المتتابع الثقيل، ومع صوته المحبوب، شعر سعيد الحمضوني بنفسيته التي تغذت طويلاً بالثورة والدم والقتال في الجبال، شعر بأنها النهاية.. نهاية تاق إليها طويلاً وها هي ذي تتقدم إليه بتؤدة، كم هو بشع الموت.. وكم هو جميل أن يختار الإنسان القدر الذي يريد.. وسمع صوته من خلال دقات الرصاص:

– اسمع أريد أن أوصيك وصية هامة..

– وعاد يصيخ إلى المدفع واستخلص من صوت الرصاص ثقة جديدة ليتابع وهو يحاول أن يمضغ ألمه:

– قرب قرية (أبو كبير) أبعد منها قليلاً، يوجد مستشفى للسل.. عرفته؟حسناً! لي هناك مبلغ جيد من المال، قالوا لي.. أن أرجع لأقبضه بعد أن يفحصوا الدم.. أنا متأكد أنه.. دم جيد.. في كل مرة يقولون إنهم يريدون أن يفحصوا الدم كأن دم الإنسان يتغير في خلال أسبوع ونصف.. اسمع.. إن ثمن المدفع لم يسدد كله.. ستجد اسم التاجر في داري.. هو من يافا. لقد دفعت قسماً كبيراً من ثمنه من تبرعاتكم. لقد أوشك ثمنه أن يتم.. هل تعرف أنهم يشترون الدم بمبلغ كبير؟ لو عشت شهرين فقط؟ شهرين آخرين لاستطعت أن أسدد كل ثمنه.. إنني أعطيهم دماً جيداً. ثمنه جيد.. خذ حسن وحسين واذهب إلى ذلك المستشفى.. ألا تريد أن يبقى المدفع عندكم.. إن حسن وحسين.. ولداي.. يعرفان كيف يذهبان إلى هناك.. لقد كانا يذهبان معي في كل مرة.. إن دماءنا جميعاً جيدة.. جيدة جداً.. القضية قضية الحليب الذي رضعناه.. قضية.. أريد أن أقول لك شيئاً آخر.. إذا تراجع اليهود هذه المرة.. تكون آخر مرة يهجمون بها من هذه الناحية.. سيخافون.. فعليكم أن تنقلوا المدفع إلى الشمال.. لأن الهجوم التالي سيكون من هناك..

واشتد شعوره بالنار تلسع كفيه بقسوة.. وأحس إحساساً ملحاً أنه لو كان في صحته العادية لاستطاع أن يقاوم أحسن من الآن، وراوده شعور قاتم بالندم على أنه سلك في شراء المدفع ذلك السبيل، ولكنه أحس إحساساً دافقاً أن المدفع طرف آخر من الموضوع، طرف هام.. أن وجوده يحافظ على أهميته قبل أن يموت هو، وبعد أن يموت..

فأغمض عينيه، وحاول جاهداً أن يحرر نفسه من سجن ذاته كي ينسى ألمه.. لكنه لم يستطع.. فأسقط ركبته على الأرض في ثقل..

وعلى صوت الطلقات المتقطعة بانتظام وعنف.. أحس سعيد الحمضوني بأشياء كثيرة.. كأنها ملايين الإبر تدخل في شرايينه فتسلبه ما تبقى من دمه، ثم شعر بأطرافه جميعها تنكمش كأنها ورقة جافة في نهاية الصيف.. وبجهد شرس حاول أن يرفع رأسه ليشم الحياة، إلا أنه وجد نفسه فجأة في تنور من ذلك النوع الذي يكثر.. في السلمة، والذي عاش إلى جواره فترات طويلة من صباه، وجد نفسه في ذلك التنور جنباً إلى جنب مع الأرغفة الساخنة تحمر تحت ألسنة اللهب، ورأى بعينيه فقاقيع العجين الملتهبة، تطير عن رغيف المرقوق وتلتصق على شفتيه، وشعر بيد قاسية تشد رأسه إلى أدنى.. إلى أدنى.. إلى أدنى.. فيسمع لفقرات رقبته صوتاً منتظماً ثقيلاً وهي تتكسر تحت ثقل رأسه.. وأحس أنه فعلاً لا يريد أن يموت، وأعطته الفكرة دفقة أخرى من الحياة.. فاكتشف أن صوت تكسر فقرات رقبته هو صوت الرصاص الذي ينطلق من المدفع الرشاش، وشعر بمواساة من نوع غريب، مواساة تشبه تلك التي يراها الوالد في ولد عاش بعد مصرع أخيه، فابتسم باطمئنان، وخرج من(التنور)، لكنه شعر أنه لم يلمس الأرض بقدميه..

وشيعته القرية كلها إلى مقره الأخير.. أو الأول.. سيان..

دمشق 57/8/12

4 قرار موجز

كان من هواة الفلسفة..والحياة بالنسبة له هي مجرد نظرية.. لقد بدأ يتفلسف منذ كان طفلاً، ويذكر تماماً كيف أوجد لنفسه سؤالاً شغله طيلة أسبوع كامل، واعتبره مشكلة جديرة بالتفكير العميق : لماذا يلبس الإنسان القبعة في رأسه والحذاء في قدمه ؟ لماذا لا يضع على رأسه حذاء ويلبس قبعة في قدمه؟.لماذا؟. وفكر مرة أخرى بسؤال جديد: لماذا لا يسير الإنسان على يديه ورجليه شأن سائر الحيوانات.. ألا يكون مسيره ذاك مدعاة لراحة أكثر؟

إلا أن مستوى فلسفته ارتفع مع مسير الزمن. وتوصل وتوصَّل مؤخراً إلى قرار موجز: «طالما أن الإنسان دُفِع ليعيش دون أن يؤخذ رأيه بذلك، فلماذا لا يختار هو وحده نهايته؟». ومن هذا القرار الموجز توصّل إلى قرار أكثر إيجازاً: «الموت هو خلاصة الحياة».

وهكذا، توصل إلى استقرار دعاه بنهاية المطاف.. وأخذ ينتظر

اللحظة التي يستطيع فيها أن يشرع باختيار طريقة مشرفة لميتة ما..

إذن، فإن من يدعي أن عبد الجبار دُفِع دفعاً ليشترك في ثورة.. لا يعرف الحقيقة مطلقاً.. فهو قد اختار بنفسه أن يذهب لمركز التطوع وأن يقف أمام طاولة الضابط الذي يقول بصوت ثابت:

– أريد بارودة لأستطيع أن أشترك بالثورة..

وسرعان ما اكتشف أن قضية البارودة ليست سهلة بالمرة..وأن عليه هو أن يصطاد بارودة ما بالكيفية التي يريد.. ومن ثم يستطيع أن يشترك بالثورة..

– ولكنني قد أموت قبل أن أحصل على بارودة..هكذا قال خانقاً، ولكنه ما لبث أن سكت وهو يسمع جواباً غريباً، ولكنه صحيح تقريباً:

– وهل أتيت إلى هنا كي تستمتع بصيفية لطيفة.. ثم لتعود إلى دارك ؟

هنا، فكر أن فلسفته تقتضي تعديلاً طفيفاً.. إذ أنه ربما مات قبل أن يحصل على بارودة، ولم تنقض فترة طويلة جداً كي يتوصل لقرار موجز جديد: «ليس المهم أن يموت الإنسان، أن يحقق فكرته النبيلة.. بل المهم أن يجد لنفسه فكرة نبيلة قبل أن يموت..»

وهكذا استطاع عبد الجبار أن يستحصل على بارودة جديدة تقريباً، ولم تكلِّفه جهداً بالشكل الذي تصوّر أو بالشكل الذي أعدّ، اذ أنه كان يتجول خارج «....» بعد معركة حدثت في الصباح، فوجد جندياً ميتاً «والميت لا يحتاج لبارودة»، هكذا قال لنفسه وهو يقلب الجثة عن بارودة فرنسية ذات فوهة مدببة.

وبين رفاق المتراس عرف عبد الجبار بـ«الفيلسوف»، وجد المناضلون في فلسفته منطقاً صالحاً لتبرير الأمور التي تحدث.. كان معظم الثوار من الشباب، وكان يسرّه أنه يكبرهم قليلاً وأنه يستطيع أن يجمعهم بعد كل معركة ليُدرِّسهم قراره الموجز الجديد بشأن الموت.

وبعد كل قتيل، كانت الفلسفة تتطور وتتغير.. ففي ليلة مظلمة مات فلاح أمي.. وقبل أن يسقط فوق التراس شتم «.....» ورجال «.....».. وفكر عبد الجبار بكلمة تصلح لتأبين الشهيد، فإذا بالكلمة تصبح قراره الموجز الجديد :«إن الفكرة النبيلة لا تحتاج غالباً للفهم.. بل تحتاج للإحساس!» وبعد ليلة واحدة مات شاب كان قد خرج من المتراس وهجم بالسكين على جندي كان يزحف قرب الجدار، وأطلقت النار عليه وهو في طريق عودته إلى المتراس.. وقال عبدالجبار «إن الشجاعة هي مقياس الإخلاص..» وكان عبدالجبار بالذات شجاعاً.. فلقد طلب منه الضابط، وكان قد توصل أخيراً إلى إيجاد بذلة عسكرية ملائمة، أن يذهب للميناء كي يرى ماذا يجري هناك، وقال له إن منظر وجهه الهادئ الحزين لا يثير الريبة في قلوب الخائفين..

وسار عبدالجبار في الشوارع بلا سلاح، ووصل للميناء وتجول ما شاء له التجوُّل، ثم قفل عائداً إلى متراسه..

إن الأمور تجري عكس ما يفترض المرء.. فلقد عرفه واحد ممن اشتركوا مرة في الهجوم.. وقبض عليه.. وساقه إلى حيث قال له ضابط خائف بعد أن صفعه:

– إنك ثائر...

– نعم...

– ملعون..

– كلا!

ولم ينس عبد الجبار وهو تحت الضرب الذي لا يرحم أن يضع قراراً موجزاً جديداً : «إن ضرب السجين هو تعبير مغرور عن الخوف...» وشعر إثر ذلك القرار، بشيء من الارتياح..

ولكن الأمور جرت، من ثم، على نحو مغاير.فلقد توصل الضابط أخيراً إلى فكرة اعتبرها، بينه وبين أعوانه المخلصين فكرة ذكية.. بينما عدَّها عبدالجبار تصرفاً مغروراً آخر ينتج في العادة عن الخوف...

قال له الضابط:

– ستسير أمامنا إلى متراسكم الملعون... وستعلن لرفاقك المجانين أنك أحضرت معك عدداً جديداً من الثوار.. ثم سيكمل جنودي بقية القصة...

– وأنا؟

– ستعيش معزَّزاً مكرَّماً.. أو ستموت كالكلب إن حاولت خيانتنا..

وقال عبد الجبار في ذات نفسه «إن الخيانة في حدّ ذاتها ميتة حقيرة».

وأمام صفين من الجنود سار عبدالجبار مرفوع الجبين، وفوهة مدفع رشاش تنخر خاصرته.. وقبل أن يصل إلى المتراس بقليل سمع صوت الضابط المبحوح يفحّ في الظلام:

– هيا..

لم يكن عبد الجبار خائفاً إذ إن رفاق التراس قالوا إن صوته كان ثابتاً قوياً عندما سمعوه يصيح :

–.. لقد أحضرت لكم خمسين جنديا.

×××

لم يكن عبدالجبار قد مات، بعد، عندما وصل رفاقه اليه ملقى بين جثث الجنود.. وبصعوبة جمّة سمع أحدهم صوته يملي قراره الموجز الأخير:

«ليس المهم أن يموت أحدنا.. المهم أن تستمروا..»

ثم مات.

دمشق 1958/7/21

5 الصغير يذهب إلى المخيم

كان ذلك زمن الحرب. الحرب؟ كلا، الاشتباك ذاته.. الالتحام المتواصل بالعدو لأنه أثناء الحرب قد تهب نسمة سلام يلتقط فيها المقاتل أنفاسه. راحة. هدنة. إجازة تقهقر. أما في الاشتباك فإنه دائماً على بعد طلقة. أنت دائماً تمرّ بأعجوبة بين طلقتين، وهذا ما كان، كما قلت لك، زمن الاشتباك المستمر.

كنت أسكن مع سبعة أخوة كلهم ذكور شديدو المراس، وأب لا يحبّ زوجته ربما لأنها أنجبت له زمن الاشتباك ثمانية أطفال. وكانت عمتنا وزوجها وأولادها الخمسة يسكنون معنا أيضاً، وجدّنا العجوز الذي كان إذا ما عثر على خمسة قروش على الطاولة أو في جيب أحد السراويل الكثيرة المعلّقة مضى دون تردد واشترى جريدة، ولم يكن يعرف، كما تعلم، القراءة، وهكذا كان مضطراً للاعتراف دائماً بما اقترف كي يقرأ أحدنا على مسمعه الثقيلين آخر الأخبار.

في ذلك الزمن – دعني أولاً أقل لك إنه لم يكن زمن اشتباك بالمعنى الذي يخيّل إليك، كلاّ لم تكن ثمة حرب حقيقية. لم تكن ثمة أي حرب على الإطلاق. كل ما في الأمر أننا كنا ثمانية عشر شخصاً في بيت واحد من جميع الأجيال التي يمكن أن تتوفّر في وقت واحد. لم يكن أي واحد منّا قد نجح بعد في الحصول على عمل، وكان الجوع – الذي تسمع عنه – همَّنا اليومي. ذلك أسميه زمن الاشتباك. أنت تعلم. لا فرق على الإطلاق.

كنا نقاتل من أجل الأكل، ثم نتقاتل لنوزعه فيما بيننا، ثم نتقاتل بعد ذلك. ثم في أية لحظة سكون يُخرج جدّي جريدته المطوية باعتناء من بين ملابسه ناظراً إلى الجميع بعينيه الصغيرتين المتحفّزتين، معنى ذلك أن خمسة قروش قد سرقت من جيب ما – إذا كان فيه هناك خمسة قروش – أو من مكان ما. وأن شجاراً سيقع. ويظل جدّي متمسّكاً بالجريدة وهو يتصدّى للأصوات بسكون الشيخ الذي عاش وقتاً كافياً للاستماع إلى كل هذا الضجيج والشّجار دون أن يرى فيها ما يستحق الجواب أو الاهتمام.. وحين تهدأ الأصوات يميل أقرب الصبيان إليه (ذلك أنه لم يكن يثق بالبنات) ويدفع له الصحيفة وهو يمسك طرفها، كي لا تخطف.

وكنت مع عصام في العاشرة – كان أضخم مني قليلاً كما هو الآن.. وكان يعتبر نفسه زعيم إخوته أبناء عمتي – كما كنت أعتبر نفسي زعيم إخوتي.. وبعد محاولات عديدة استطاع والدي وزوج عمّتي أن يجدا لنا مهنة يومية: نحمل السلة الكبيرة معاً ونسير حوالي ساعة وربع، حتى نصل إلى سوق الخضار بعد العصر بقليل. في ذلك الوقت أنت لا تعرف كيف يكون سوق الخضار: تكون الدكاكين قد بدأت بإغلاق أبوابها وآخر الشاحنات التي تعبر بما تبقّى، تستعد لمغادرة ذلك الشارع المزحوم. وكانت مهمتنا – عصام وأنا – هيّنة وصعبة في آن واحد. فقد كان يتعيّن علينا أن نجد ما نعبئ به سلّتنا: أمام الدكاكين. وراء السيارات.

وفوق المفارش أيضاً إذا كان المعنيّ في قيلولة أو داخل حانوته.

أقول لك إنه كان زمن الاشتباك: أنت لا تعرف كيف يمرّ المقاتل بين طلقتين طوال نهاره. كان عصام يندفع كالسهم ليخطف رأس ملفوف ممزّق أو حزمة بصل، وربما تفاحة من بين عجلات الشاحنة وهي تتأهّب للتحرّك. وكنت أنا بدوري أتصدّى للشياطين – أي بقية الأطفال– إذا ما حاولوا تناول برتقالة شاهدتها في الوحل قبلهم. وكنا نعمل طوال العصر: نتشاجر عصام وأنا من جهة، مع بقية الأطفال أو أصحاب الدكاكين أو السائقين أو رجال الشرطة أحياناً، ثم أتشاجر مع عصام فيما تبقّى من الوقت.

كان ذلك زمن الاشتباك. أقول هذا لأنك لا تعرف: إن العالم وقتئذ يقلّ على رأسه، لا أحد يطالبه بالفضيلة. سيبدو مضحكاً من يفعل.. أن تعيش كيفما كان وبأية وسيلة هو انتصار مرموق للفضيلة. حسناً. حين يموت المرء تموت الفضيلة أيضاً. أليس كذلك؟ إذن دعنا نتفق بأنه في زمن الاشتباك يكون من مهمتك أن تحقق الفضيلة الأولى، أي أن تحتفظ بنفسك حيّاً. وفيما عدا ذلك يأتي ثانياً. ولأنك في اشتباك مستمر فإنه لا يوجد ثانياً: أنت دائماً لا تنتهي من أولاً.

وكان يتعيّن علينا أن نحمل السلّة معاً حين تمتلئ ونمضي عائدين إلى البيت: ذلك كان طعامنا جميعاً لليوم التالي.. بالطبع كنا أنا وعصام متفقين على أن نأكل أجود ما في السلّة على الطريق. ذلك اتفاق لم نناقشه أبداً، لم نعلن عنه أبداً. ولكنه كان يحدث وحده. ذلك أننا كنا معاً في زمن الاشتباك.

وكان الشتاء شديد القسوة ذلك العام الملعون، وكنّا نحمل سلّة ثقيلة حقاً، (هذا شيء لا أنساه، كأنك وقعت أثناء المعركة في خندق فإذا به يحوي سريراً) وكنت آكل تفاحة، فقد كنّا خرجنا من بوابة السوق وسرنا في الشارع الرئيسي. قطعنا ما يقرب من مسير عشر دقائق بين الناس والسيارات والحافلات وواجهات الدكاكين دون أن نتبادل كلمة (لأن السلة كانت ثقيلة حقاً وكنا نحن – الاثنين – منصرفين تماماً إلى الأكل) وفجأة..

لا. هذا شيء لا يوصف. لا يمكن وصفه: كأنك على نصل سكين من عدوك وأنت دون سلاح وإذا بك في اللحظة ذاتها تجلس في حضن أمك..

دعني أقل لك ما حدث: كنّا نحمل السلّة كما قلت لك، وكان شرطي يقف في منتصف الطريق، وكان الشارع مبتلاً، وكنا تقريباً دون أحذية. ربما كنت أنظر إلى حذاء الشرطي الثقيل والسميك حين شهدتها فجأة هناك، كان طرفها تحت حذائه، أي كنت بعيداً حوالي ستة أمتار ولكنني عرفت، ربما من لونها أنها أكثر من ليرة واحدة.

نحن في مثل هذه الحالات لا نفكّر. يتحدّثون عن الغريزة. طيّب. أنا لا أعرف ما إذا كان لون الأوراق المالية شيئاً له علاقة بالغريزة. له علاقة بتلك القوة الوحشية، المجرمة، القادرة على الخنق في لحظة، الموجودة في أعماق كل منا. ولكن ما أعرفه هو أن المرء في زمن الاشتباك لا ينبغي له أن يفكّر حين يرى ورقة مالية تحت حذاء الشرطي وهو يحمل سلة من الخضار الفاسد على بعد ستة أمتار. وهذا ما فعلته: ألقيت ببقايا التفاحة وتركت السلة في اللحظة ذاتها. ولا شك أن عصام تمايل فجأة تحت ثقل السلة التي تركت في يده ولكن كان قد شاهدها بعدي بلحظة واحدة. إلاّ أنني بالطبع كنت قد اندفعت تحت وطأة تلك القوة المجهولة التي تجبر وحيد القرون على هجوم أعمى، غايته آخر الأرض، ونطحت ساقي الشرطي بكتفي فتراجع مذعوراً. وكان توازني أنا الآخر قد اختلّ. ولكنني لم أقع على الأرض – وفي تلك اللحظة التي يحسب فيها الأغبياء أن لاشيء يمكن له أن يحدث – شاهدتها: كانت خمس ليرات. لم أشاهدها فحسب بل التقطتها واستكملت سقوطي. إلاّ أنني وقفت بأسرع مما سقطت وبدأت أركض بأسرع مما وقفت.

ومضى العالم بأجمعه يركض ورائي: صفّارة الشرطي، وصوت حذائه يقرع بلاط الشارع ورائي تماماً. صراخ عصام، أجراس الحافلات. نداء الناس.. هل كانوا حقاً ورائي؟ ليس بوسعك أن تقول وليس بوسعي أيضاً. لقد عدوت متأكداً حتى صميمي أن لا أحد في كل الكواكب السيارة يستطيع أن يمسكني.. وبعقل طفل العشر سنوات سلكت طريقاً آخر.

ربما لأنني حسبت أن عصام سيدلّ الشرطي على طريقي. لست أدري. لم ألتفت. كنت أركض ولا أذكر أنني تعبت.. كنت جندياً هرب من ميدان حرب أجبر على خوضها وليس أمامه إلاّ أن يظل يعدو والعالم وراء كعبَي حذائه.

ووصلت إلى البيت بعد الغروب، وحين فتح لي الباب شهدت ما كنت أشعر في أعماقي أنني سأشهده: كان السبعة عشر مخلوقاً في البيت ينتظرونني. وقد درّسوني بسرعة، ولكن بدقة، حين وقفت في حلق الباب أبادلهم النظر:كفي مطبقة على الخمس ليرات في جيبي، وقدماي ثابتتان في الأرض.

كان عصام يقف بين أمه وأبيه، وكان غاضباً. لا شك أن شجاراً قد وقع بين العائلتين قبل مقدمي. واستنجدت بجدي الذي كان جالساً في الركن ملتحفاً بعباءته البنية النظيفة ينظر إليّ بإعجاب: رجلاً كان حكيماً كان. رجلاً حقيقياً يعرف كيف ينبغي له أن ينظر إلى الدنيا.

وكان كل ما يريده من الخمس ليرات: جريدة كبيرة هذه المرة.

وانتظرت الشجار بفارغ الصبر. كان عصام بالطبع قد كذب: قال لهم إنه هو الذي وجد الخمس ليرات وأنني أخذتها منه بالقوة. ليس ذلك فقط، بل أجبرته على حمل السلة الثقيلة وحده طوال المسافة المنهكة: ألم أقل لك إنه زمن الاشتباك؟ لم يكن أي واحد منا مهتماً فقط بل كان متأكداً من أن أحداً لم يهتم بالحقيقة. ليس ذلك فقط بل إنه ارتضى أن يذلّ نفسه ويعلن ربما للمرة الأولى أنني ضربته وأنني أقوى منه.. ولكن

ما قيمة ذلك كله أمام المسألة الحقيقية الأولى.

كان أبوه يفكّر بشيء آخر تماماً: كان مستعداً لقبول نصف المبلغ وكان أبي يريد النصف الآخر لأنني لو نجحت في الاحتفاظ بالمبلغ كله لصار من حقي وحدي، أما إذا تخلّيت عن هذا الحق فأفقد كل شيء وسيتقاسمون المبلغ.

ولكنهم لم يكونوا يعرفون حقاً معنى أن يكون الطفل ممسكاً بخمس ليرات في جيبه زمن الاشتباك.. وقد قلت لهم جميعاً بلهجة حملت لأول مرة في حياتي طابع التهديد بترك البيت وإلى الأبد: إن الخمس ليرات لي وحدي.

وأنت تعرف لا شك: جنّ جنونهم، ضاع رابط الدم فوقفوا جميعاً ضدي. لقد أنذروني أولاً. ولكنني كنت مستعداً لما هو أكثر من ذلك ثم بدأوا يضربونني. وكان بوسعي بالطبع أن أدافع عن نفسي، ولكن لأنني أردت أن أحتفظ بكفي داخل جيبي مطبقة على الخمس ليرات فقد كان من العسير حقاً أن أتجنب الضربات المحكمة. وقد تفرّج جدّي على المعركة باستثناء بادئ الأمر، ثم لما بدأت المعركة تفقد طرافتها قام فوقف أمامهم، وبذلك يسَّر لي أن ألتصق به. اقترح تسوية. قال إن الكبار لا حق لهم بالمبلغ. ولكن من واجبي أن آخذ كل أطفال البيت ذات يوم صحو إلى حيث نصرف جميعاً مبلغ الخمس ليرات كما نشاء.

عندها تقدّمت إلى الأمام معتزماً الرفض، إلاّ أنني في اللحظة ذاتها شهدت في عينيه ما أمسكني. لم أفهم بالضبط آنذاك ما كان في عينيه، ولكنني شعرت فقط أنه كان يكذب وأنه كان يرجوني أن أصمت.

أنت تعرف أن طفل العشر سنوات – زمن الاشتباك – لا يستطيع أن يفهم الأمور (إذا كان ثمة حاجة لفهمها) كما يستطيع عجوز مثل جدّي. ولكن هذا هو ما حصل. كان يريد جريدته ربما كل يوم لمدة أسبوع – وكان يهمه أن يرضيني بأي ثمن.

وهكذا اتفقنا ذلك المساء. ولكنني كنت أعرف أن مهمتي لم تنته. فعليّ أن أحمي الليرات الخمس كل لحظات الليل والنهار. ثم عليّ أن أماطل بقية الأطفال. وعليّ أيضاً أن أواجه محاولات إقناع وتغرير لن تكف عنها أمي. قالت لي ذلك المساء أن الليرات الخمس تشتري رطلين من اللحم، أو قميصاً جديداً لي، أو دواء حين تقتضي الحاجة، أو كتاباً إذا ما فكّروا بإرسالي إلى مدرسة مجانية في الصيف القادم... ولكن ما نفع الكلام؟ كأنها كانت تطلب مني وأنا أعبر بين طلقتين أن أنظف حذائي.

ولم أكن أعرف بالضبط ماذا كنت أنوي أن أفعل. ولكنني طوال الأسبوع الذي جاء بعد ذلك نجحت في مماطلة الأطفال، بآلاف من الكذبات التي كانوا يعرفون أنها كذلك ولكنهم لم يقولوا إطلاقاً أنها أكاذيب. لم تكن الفضيلة هنا. أنت تعلم. كانت مسألة أخرى تدور حول الفضيلة الوحيدة آنذاك: الخمس ليرات.

ولكن جدّي كان يفهم الأمور، وكان يريد جريدته ثمناً معادلاً لدوره في القصة، وحين مضى الأسبوع بدأ يتململ. لقد شعر (من المؤكد أنه شعر، ذلك لأن رجلاً عجوزاً مثله لا يمكن أن تفوته تلك الحقيقة) أنني لن أشتري له الجريدة، وأنه فقد فرصته، ولكنه لم يكن يمتلك أية وسيلة لاستردادها.

وحين مرّت عشرة أيام أخرى اعتقد الجميع أنني صرفت الليرات الخمس، وأن يدي في جيبي تقبض على فراغ. على خديعة. ولكن جدّي كان يعرف أن الليرات الخمس ما تزال في جيبي. وفي الواقع قام ذات ليلة بمحاولة لسحبها من جيبي وأنا مستغرق في النوم، (كنت أنام بملابسي) إلاّ أنني صحوت فتراجع إلى فراشه ونام دونما كلمة.

قلت لك. إنه زمن الاشتباك. كان جدّي حزيناً لأنه لم يحصل على جريدة، وليس لأنني نكثت بوعد لم يُتَّفَق عليه. كان يفهم زمن الاشتباك، ولذلك لم يلمني طوال السنتين اللتين عاشهما بعد ذلك على ما فعلته.

وقد نسي عصام القصة أيضاً. كان في أعماقه – كطفل صعب المراس– يفهم تماماً ما حدث. واصلنا رحلاتنا اليومية إلى سوق الخضار، كنا نتشاجر أقل من أي وقت مضى ونتحادث قليلاً. يبدو أن شيئاً ما – جداراً مجهولاً ارتفع فجأة بينه – هو الذي ما زال في الاشتباك – وأنا الذي تنفّست – ليس يدري كم – هواء آخر.

وأذكر أنني احتفظت بالخمس ليرات في جيبي طوال الخمسة أسابيع: كنت أُعدّ خروجاً لائقاً لها في زمن الاشتباك. إلاّ أن كل شيء حين يقترب من التنفيذ كان يبدو وكأنه جسر للعودة إلى زمن الاشتباك وليس للخروج منه.

كيف تستطيع أن تفهم ذلك؟ كان بقاء الليرات الخمس معي شيئاً يفوق استعمالها. كانت تبدو في جيبي وكأنها مفتاح أمتلكه في راحتي وأستطيع في أية لحظة أن أفتح باب الخروج وأمضي. ولكن حين كنت أقترب من القفل كنت أشمّ وراء الباب زمن اشتباك آخر. أبعد مدى. كأنه عودة إلى بداية الطريق من جديد.

وما بقي ليس مهماً: ذات يوم مضيت مع عصام إلى السوق وقد اندفعت لأخطف حزمة من السلق كانت أمام عجلات شاحنة تتحرّك ببطء. وفي اللحظة الأخيرة زلقت وسقطت تحت الشاحنة. كان حظي جيداً فلم تمر العجلات فوق ساقي، إنما توقّفت بالضبط بعد ملامستها. وعلى أية حال صحوت من إغمائي في المستشفى. وكان أول ما فعلته – ما لا شك تخمّن – أن تفقّدت الخمس ليرات. إلاّ أنها لم تكن هناك.

أعتقد أن عصام هو الذي أخذها حين حملوه معي في السيارة إلى المستشفى. ولكنه لم يقل وأنا لم أسأل. كنا نتبادل النظر فقط ونفهم. لا، لم أكن غاضباً لأنه كان ملهياً وأنا أنزف دمي بأخذ الليرات الخمس. كنت حزيناً فقط لأنني فقدتها.

وأنت لن تفهم. ذلك كان في زمن الاشتباك.

غسان
الشخص والنص

دراسة : د.فيصل درّاج

شهوة الحياة ومنازلة الموت

كان في حياته غربة مثيرة: ولد غسان كنفاني في حيفا 9 إبريل/ نيسان عام 1936، خلال الثورة الفلسطينية الكبرى، واغتاله الإسرائيليون بعد ستة وثلاثين عاماً، حين كان الفلسطينيون يحاولون ثورة جديدة، وخلّف وراءه كتابة متعددة الأجناس، بشّرت بالثورة، ومايزت بين بشر حقيقيين وآخرين سمتهم العقم والبلادة. وكان في حياته القصيرة المديدة متعدداً: احترف الصحافة وعالج الأدب، وغدا قائداً سياسياً، واقترب من «العمليات العسكرية»، الحالمة بوطن مستعاد.

جعل هذا من حياته مرآة لمسار شعبه، ومن كتاباته شهادة على معنى المنفى واللجوء، والتمرّد والمقاومة. غسان من هؤلاء الحالمين، الذين يعملون على تقصير المسافة بين الفعل والكلمة، ويتطلعون إلى

توليد جنس جديد من البشر. تُختصر حياة غسان، ربما، في جملة غاضبة وردت في مسرحيته: «الباب» تقول: يستطيع الإنسان الذي فاته اختيار ميلاده أن يختار موته. ولهذا انتهى ممزّق الأوصال، بعد أن شطرته قنبلة موقوتة إلى نصفين 8 يوليو/تموز 1972.

1- إنسان حمل ذاكرة جريحة

ذات مساء في عمّان، وعلى شرفة كأنها نافذة وسجن معاً، وفي صحبة الصديق المبدع مريد البرغوثي، سألنا الراحل د. إحسان عباس، الذي عرف غسان طويلاً: ماذا تذكر من هذا الإنسان الذي غادر قبل الأوان؟ قال: أذكر فضوله إلى ما لا يعرف، وقلقه الذي لا يمكن حجبه، وتوزعه على أكثر من مكان ووظيفة، وسعيه المرهق إلى «تملّك اللحظة»، والتصرّف السديد بالوقت. كان في حديث عباس شيء من تلك البهجة، التي تحضر عند استدعاء ذكرى إنسان عزيز لا يشبه غيره.

تابع د. إحسان: جاءني، ذات يوم، وأعطاني مخطوطة «رجال في الشمس»، وانتظر رأيي. جاءني لاهثاً، بعد يومين، وكان في جوابي بعض التساؤل. قال غسان مباشرة: الرسالة لم تصل. وعاد بعد يومين وأعطاني المخطوطة من جديد، وكان في جوابي رضا صريح، قال عندئذ: الرسالة وصلت، وسأل قبل أن يخرج: ما الذي استوقفك في الرسالة؟ قلت: شخصية أبي الخيزران، ضحك وقال: إنه لا يزال بيننا. غير أن ما استوقف الناقد الراحل كانت كلمة «الرسالة»، التي استعاض بها غسان عن كلمة: الرواية، كما لو كان يؤدي واجباً، ويريد أن يؤديه كاملاً بلا نقصان.

سألنا الناقد الراحل: من أين جاء بفكرة الرواية؟ قال: سمع عن حكاية تشبهها، موضوعها تهريب «اللاجئين» الباحثين عن عمل إلى الكويت. لكن غسان أضاف إلى الحكاية غضبه الشديد: كان في كلمة اللاجئ ما يجرح كرامته، وكان في أحوال المخيمات ما يستفز روحه، وكان غاضباً على هؤلاء العرب الذين يتحدّثون عن «اللاجئين» وينسون القضية الفلسطينية.

سألناه، وهو يتأمل الشرفة السجن، ماذا يتبقى من غسان بعد كل هذه السنين؟ أجاب: قلقه الأدبي، الباحث عن شكل «يقول كل شيء دفعة واحدة، ويرسم الواقع من دون زيادة أو نقصان»، كما ردّد أمامي أكثر من مرة. واستدرك الناقد الكبير وقال بجديّة عالية: أهم ما ميّز غسان هو المثقف الذي كان فيه، لم يكن يساوم ولم يعرف أنصاف الحلول، وكان يعمل على حذف المسافة بين القول والمعيش، محاولاً أن يعيش خارج الكتابة ما قاله داخلها. كان في اتساقه الأخلاقي يرمّم «فلسطينيته المتهمة»، ويرد على هؤلاء الذين اتهموا الفلسطينيين ببيع أرضهم والتطفّل على موائد الآخرين.

في مطلع تسعينيات القرن الماضي، وفي مكتب مجلة «الهدف» ، قال لي الراحل «أبو ماهر اليماني»، النقابي الفلسطيني القديم ورفيق غسان في الجبهة الشعبية: «كان غسان يرى في اللجوء كابوساً، ينظر إلى المستقبل ويحن إلى فلسطين الثلاثينيات، التي شهدت ثورة عظيمة مغدورة». كان في علاقة غسان بفلسطينه الضائعة بعد صوفي، عبّر عنه في روايته «العاشق»، وكان في علاقته بمنفاه صراخ له طعم الفجيعة. ولهذا كان يكره الهدوء والطمأنينة، ويرى في الفلسطينيين المستكينين مخلوقات بذيئة. كان، في الحالين، يعبّر عما عاشه ورآه واختبره، وأيقظ

في روحه غضباً حارقاً.

يتذكر الراحل الجميل حسين البرغوثي في كتابه البديع: «الضوء الأزرق»، أنه مرّ ببيروت، وسأل في مكان ما عن أحد أقربائه، جاءه الجواب: «في هذه البناية في واحد فلسطيني». لم يكن الفلسطيني المجهول الاسم إلاّ غسان كنفاني، الذي صيّرته فلسطينيّته إنساناً نكرة، لا اسم له، ولا يحق له أن يمتلك اسماً، كبقية البشر. ربما ما عاشه غسان هو الذي جعله «يستعجل» العودة إلى الوطن، وخلق منه إنساناً، يأخذ نفسه بالشدة، لا يعبث بالوقت ويكره التأني والتسويف، كما لو كان اللجوء صياداً واللاجئ طريدة.

كان يأتي إلى مركز الأبحاث، في بيروت، في تمام الثامنة صباحاً، واضح الأناقة كموظف من موظفي البنوك، سريع الخطوة مندفعاً إلى الأمام، وعلى وجهه رذاذ من الراحة والرضا. كان هذا هو الراحل د. أنيس صايغ، مدير المركز، الذي عرف غسان طويلاً، وطلب مني، ذات مرة، دراسة عن غسان، حين عملت باحثاً متفرغاً لمدة عامين تقريباً. حين بدأ الكلام قال: جمعت بيني وبين غسان أسباب كثيرة، أولها وأكثرها أهمية شعار: «اعرف عدوّك»، الذي أولاه المركز اهتماماً خاصاً. كان غسان مهجوساً بمعرفة كل ما له علاقة بالعدو الصهيوني، بل إنه قرأ تاريخ فلسطين الحديث من وجهة نظر الدمار الذي ألحقه الصهيونيون به.

قال له د. أنيس مرة: ما زلت أنتظر إسهامك في مجال «اعرف عدوك». لم تتأخر الإجابة طويلاً، عاد إليه بعد أسابيع قليلة وأعطاه كتابه الرائد «عن الأدب الصهيوني»، الذي كتب له أنيس، لاحقاً، مقدمة، أضاءت معنى: اعرف عدوك.

حين سلّمه غسان المخطوطة سأل: د. أنيس: هل العدو موجود بصيغة المفرد أم بصيغة الجمع؟ أجاب مدير المركز: العدو الرئيسي يتبعه العملاء والمتخلّفون والحمقى، الذين يعتبرون الدراسة في «جامعة كيمبردج»، كما الأناقة والنظام»، «عاهة برجوازية». ردّ غسان: وهناك «المخاتير»، المتزعِّمون الزائفون في زمن مضى، والذين غيّروا لباسهم، هذه الأيام، وظلّوا «مخاتير». قال د. أنيس: كشفت كلمة «المخاتير»، التي استعملها غسان، عن ذاكرة جريحة لا تنسى الماضي، ذلك أن بعض المخاتير لعب دوراً سيئاً خلال فترة الانتداب البريطاني. ومع أن غسان خرج من فلسطين وعمره اثنا عشر عاماً، فقد كان يسترجع وقائعها بلا التباس، بدءاً من الفلاح المقاتل، وصولاً إلى جندي يهودي يعاقب صِبْية فلسطينيين، مروراً بـ «مثقف» يرى في الحديث مع «الفلاح» أمراً صعباً. ولعل الالتفات إلى الماضي، تجنباً للأخطاء التي وقعت فيه، هو الذي حذف المسافة بينه وبين الحاضر، فأدرجه غسان في قصصه القصيرة ورواياته، وكتب دراسة ممتازة عن ثورة 1936.

حين أنهى أنيس صايغ كلامه عن غسان وشخصيته قال: ساوى غسان بين الكتابة وبرنامج «العمل الثوري»، الذي لا يقبل بالتأجيل، أو بين الكتابة و«المهمة الحزبية»، حيث المرجع الحزبي هو غسان نفسه، والنقد و«النقد الذاتي» يحددهما هو لا غيره.

ولأنه مرجع ذاته، وهي حال كل إنسان حقيقي، عطف غسان «اعرف عدوك» على قاعدة مكمّلة: «اعرف ذاتك»، التي دفعته إلى كتابة «أدب المقاومة في فلسطين المحتلة». كان يشتق الكتابة من الضرورة، فيصبح مؤرخاً، أو يشتقها من وظيفتها الوطنية، ويغدو ناقداً أدبياً. كان، في الحالين، عفوياً، يقوم بما يجب عليه أن يقوم به، وكان في الحالين هناك، حيث لا ينتظره أحد. كان الناقد اللبناني محمد دكروب يشاكسه ويقول له: «مستعجل كتير يا غسان»، كان الأخير يجيب: الزمن لا ينتظر، ووظيفة الكلمة تقرر كل شيء. كان يعتقد هذا الفلسطيني الشاحب أن غضبه الداخلي قادر، ربما، على تخليص «الكتابة العجلى» من الشوائب، وأن وراء صوت الكتابة صوتاً أكثر علوّاً، يصل الكاتب بقارئه، ويصل الكاتب والقارئ بمعركة مزهرة منتظرة. كان غسان يكتب من وجهة نظر القارئ المطلوب، طارداً الوحدة والمعادلات المجردة، وكان بعد «الكتابة المشتركة» يجلس مع روحه، ويزرع في ذراعه «إبرة الأنسولين»، التي تصد عنه آثار مرض السكري، ولا تصدّه تماماً.

«اعرف عدوك تعرف لماذا خرجت إلى المنفى»، كان يقول غسان، «واعرف ذاتك تعرف كيف تعود إلى الوطن». كان فيه روح فلاح فلسطيني قاتل في ثورة 1936، قال د. صايغ، وكانت في ذاكرته أطياف جندي يهودي أحرق قرى فلسطينية. حمل صورة الفلاح في روحه، ورحّل سؤال الجندي القاتل إلى عقله. عثر في هذين العنصرين على الإنسان القضية، الذي يتعلّم من المقاتلين ويعلّمهم.

حين كنا ندخل مكتب مجلة الهدف، في كورنيش المزرعة في بيروت، كنا نعرف أنه هناك. الكل منصرف إلى عمله وفرح به، وبين الجميع تنافس نظيف، وفي الجو فرح منظّم، وهو هناك يقيّم وينقد ويوزّع الملاحظات، فإن قابلناه قال فرحاً: «العدد جاهز». هكذا كان يصف الراحل صابر محي الدين، الذي أصبح لاحقاً رئيس تحرير المجلة، صورة غسان، كما رآها، أو سمعها من غيره، معلّقاً: «كان معنا ولم يكن منا تماماً: كان معنا يقاسمنا العمل، ولم يكن منا تماماً، فقد كان يعمل

ما لا نستطيع القيام به». كان يبدو كما أراد أن يبدو، ذاهباً إلى فلسطين وراجعاً منها، محاوراً غيره وذاته وناظراً إلى نجم بعيد. حين أراد صابر محي الدين محاكاته أرهقه قلبه في منتصف الطريق ورحل، وهو في حدود الخمسين. الوفاء من علامات النجباء والموت في الطريق مكافأة ظالمة على حياة أرادت أن تكون نجيبة.

2- الغضب المقاتل ورعب المنفى:

استعاد المخرج المصري النبيه توفيق صالح حواراً بعيداً مع غسان وقال: «أدان صاحب «رجال في الشمس» الخروج من فلسطين إدانة كاملة، مساوياً بين الخروج و«الفرار» المميت. هكذا فهمت روايته. حين سألته عن الجملة الشهيرة في روايته: «لماذا لم يدقوا جدران الخزّان» وهل قصد بها التحريض، في سياق قومي كان يدعو إلى التحريض، أم أنه كان يقصد أن هؤلاء «الهاربين» من وطنهم لقوا جزاءً عادلاً؟ قال: قصدت بها الإدانة الشاملة. فهذه الجملة لم تكن موجهة إلى حاضر عليه أن يتعلّم من الماضي، ولا إلى مستقبل تجاوز أخطاء الحاضر والماضي معاً، بل كان مقصوداً منها وصف «الهاربين ومحاكمتهم وإنزال الحد الأعلى من العقاب بهم». وهذا ما أردت أن أقوله في فلمي «المخدعون»، المأخوذ من الرواية، لكن الرقابة، المأخوذة بالتصفيق والهتاف، في ذاك الزمان، أرادت تأويلاً تحريضياً للجملة الشهيرة، يتوجه إلى الحاضر أكثر مما يتوجه إلى الماضي، ويتعاطف مع «المخدوعون» ويلتمس لهم الأعذار.

تابع الأستاذ توفيق: قال لي غسان إنه يرفض أن ينطلق من السياق، مهما كانت شعاراته، وأنه لا ينطلق من القضايا الكبيرة، عادلة كانت أم

غير عادلة، فما يبدأ منه ويصرّ عليه هو: الإنسان، الذي يصل إلى هدفه إنْ وحّد بين الوعي الصحيح والممارسة المنظّمة، والذي إن استسلم إلى الوعي الضليل انتهى إلى «مزبلة».

ترجم غسان في منظوره العنيف أصداء كلمة «لاجئ» التي حاصرت الفلسطينيين بعد الخروج، وأطياف الذين تركوا قراهم واندفعوا إلى حدود مجاورة. يرجع تعبير «الذاكرة الجريحة»، بلغة أنيس صايغ، مرة أخرى وقد حوّل جميع اللاجئين، في «رجال في الشمس» إلى «مخاتير» فاقدي الصلاحية، أو إلى «أموات أجّل دفنهم»، طالما «أن الفرار موت»، وأن بؤس اللجوء لا يليق إلا بالأموات.

يذكر أخو غسان كنفاني في كتاب عن أيام الهجرة الأولى، أحوال اللاجئين الذين «استضافتهم» صيدا، المدينة اللبنانية الكريمة، ووزعتهم على «المساجد» و«المدارس» وقاعات كبيرة تتكدّس فيها عائلات، تتوسل «السواتر» جدراناً، وتخلق من «السواتر» جدراناً وهمية واشية. رأى غسان، كما يقول أخوه، في «المساجد المضيفة» تعبيراً عن اليتم الشامل، ذلك أن المسجد بيت **الله**، وأن بيت **الله** لا يقصده إلا اليتيم، الذي يتوسّل الإحسان والشفقة، متنازلاً عن جزء من روحه لا ينبغي التنازل عنه. رسبت صورة اليتيم المتسوّل في ذاكرة غسان، ودفعته إلى تصور بطولي عدمي ، يأمر الإنسان بأن يقايض روحه بكرامته، فإن رفض المقايضة التصقت به صفة «اللاجئ»، وسقطت عنه صفة الفلسطيني. «على الإنسان أن ينام في بيته أو يبقى صاحياً»، كان يقول غسان وهو يبعث من ذاكرته صور «الأكوام اللاجئة» التي اعتصمت بكرم المساجد وخسرت كرامتها الذاتية. ترجم معنى هذه الذكريات في مسرحيته «الباب»، التي حرّضت على التمرّد على الوجود، كي يكون

الإنسان الكريم كما يريد أن يكون.

أما ضيافة «المدارس» وقاعات الجدران الوهمية فقد رأى فيها الصبي، الذي كان ينطلق من «نومه» إلى شاطئ البحر، فضيحة وعرياً شاملاً: «كيف يعيش الإنسان إن كانت روحه عارية»؟ على شواطئ صيدا، وقبل ثلاثة وستين عاماً، كان يمشي صبي فلسطين، «يتأبط فضيحته»، ويسأل الوجود عن معنى الظلم والعدل، ويستنهض جسده النحيف ليحمل عبئاً لم يختره ويمشي صامتاً. بعد ذلك بأربعة وعشرين عاماً سيمضي غسان تاركاً العبء لغيره، بعد أن حلَّ جسد الصبي في جسد الرجل، وبعد أن عالج «الأمن الإسرائيلي» الجسد الراضي بخياره بأدوات قاتلة وأعطاه صورة جديدة: الوجه في مكانه، والعينان تنظران إلى أعلى، ودم على الأذنين، والصدر انفصل عن بقية الجسد بشكل مائل مستقيم، كما لو كان قد قطع بسكين حادة لا تعرف الخطأ، والذراعان كأنهما في مكانهما، واليد التي تكتب استقرت شظايا في مكان عَصِيّ على التحديد. هكذا بدا غسان بعد «اغتياله»، وقد استقر نصفه الأعلى على أرض متربة إلى جانب جدار.

ذكر إميل حبيبي، في مقابلة قبل أن يغادر بعامين، أن غسان، في روايته «عائد إلى حيفا»، خلط بين الجهات، ولم يميّز الغرب من الجنوب. وواقع الأمر أن هواجس غسان كانت مغايرة لهواجس إميل، فلم يكن الأول مشغولاً بتفاصيل المكان بل كان، وهو يتذكر ويتأمل ويحاسب، تحت وطأة «فرار» الجموع المتلاطمة، التي كانت تتقي «الطلقات الإسرائيلية»، باللواذ بـ «البور» حيث القوارب الضيقة تحمل «الأرواح الضائعة» إلى ملاذ عنوانه: الفضيحة. «علينا أن نستعيد كرامتنا» قال غسان، ذات صيف، في منتصف الستينات في دمشق، لزميله الفلسطيني «نواف أبو الهيجا»، الكاتب الذي كان يعيش في مخيم اليرموك، ثم ذهب إلى بغداد، ثم رحل إلى عمّان، كي يعود إلى مخيم اليرموك، بعد سقوط بغداد. «علينا أن نستعيد كرامتنا»، «لأن الخروج من فلسطين، كما أتذكّره، كان يشبه يوم القيامة، الذي يختلس من العائلة الموحّدة حس الاتجاه والمسؤولية». وبسبب العلاقة بين «الخروج» ويوم القيامة، «اختار غسان مجازاً «العقاب الجماعي»، يقول نواف، حيث «الأب» لا يلحق بعائلته، والأم شاردة عن رضيعها الذي ضاع إلى الأبد، و«الابن» ينتظر وصول أمه المؤجّل. كل ما كان سويّاً انكسر، وكل ما كان بريئاً تلوّث، و«كل ما أخلصت له الأرض خانها».

ذكر نوّاف، قبل زمن طويل، أن غسان حدّثه عن صورة «الكهل الأعمى» الذي كان يأخذ الهاربون إلى الميناء بيده، في ربيع 1948: «حين علت صيحات الهاربين وهم يقتربون من «القارب» توقف الأعمى في مكانه، قال شيئاً، رفع يده ورجع إلى الوراء، محاولاً أن يعود إلى المكان الذي جاء منه، وعارض الجموع المتلاطمة وغاب عن البصر». كان غسان يسأل: ماذا قال الرجل؟ ولماذا انسحب حين اقترب من القارب؟ وإلى أين عاد؟ وكيف مات؟ «الجميع يموت ولكن كيف؟» كان الأعمى محقاً لأنه لم يكن أعمى مات كما يريد ووفّر على ذاته «ذل المخيم».

المخيم هو المجاز الكامل الذي قرأ غسان فيه «العار الفلسطيني»، والمخيم الفلسطيني، في صورته اللبنانية تحديداً، حيث اللاجئون يأكلون أقل ويشربون أقل ويتنفسون أقل، فإن رفعوا صوتهم جاءتهم صفعة «الدركي» الغليظة. ولهذا وزّع غسان «المخيم» على جميع رواياته: في «رجال في الشمس» شيء من المخيم، وفي «الأعمى والأطرش» أشياء من المخيم، والمخيم له الحضور كله في «ما تبقى لكم». المخيم ليس هو

بالبيت، ولا هو بالسجن، ولا هو بالمنفى تماماً، إنه بقايا مكان وبقايا بيت، وفيه بقية من سجن، وفيه بشر سقطت عليه «النقمة»، في انتظار يوم يصحو فيه من خذل كرامته.

كان الراحل ناجي العلي، رسام الكاريكاتور، يمشي في أزقة مخيم «عين الحلوة» في صيدا، قبل أن يذهب إلى مكتبه في جريدة «السفير»، في بيروت، ويرسم أكثر من «لوحة»، مدركاً أن الرقيب يقبل بأشياء ويرفض أخرى. كان لـ «المشي» في الأزقة شكل القاعدة: «لازم أتنفّس هواء المخيم قبل أن أرسم»، كان يقول ناجي، مستأنفاً غضب غسان، الذي اتخذ من الاحتجاج على المخيم منهجاً في القراءة والكتابة. من أين تأتي الأفكار التي تترجمها الروايات وتفترش الرسوم؟ تأتي من المعيش، وتكون جارحة ومعذَّبة ومعذِّبة(الأولى بفتح الذال والثانية بكسرها) حين تأتي من المعيش الفلسطيني في المخيم. «كانوا يطوون هزائمهم كما تُطوى الرايات»، كان يقول غسان، الذي استأنف ناجي رسالته، حالمَيْن معاً برايات أخرى. قتل الإسرائيليون الأول، وقُتل الثاني برصاصات ليست «إسرائيلية».

3- توسيع الزمن والاشتباك مع الحياة:

بعد النكبة بعام أو أكثر، كان الفلسطينيون يتحدّثون عن «حارة اليهود» في دمشق القديمة، التي سافر عدد من أهلها إلى فلسطين المحتلة. كانت السلطات قد وزّعت اللاجئين على عدد من البيوت التي غادرها أهلها، أشهرها «قصر شمعايا»، البناء الواسع ذو «الأصل العريق»، الذي تكدّست فيه عائلات فلسطينية لاجئة، كان صبيتها يتأملون، باستغراب، «يهوديات» يتناقص عددهن يوماً بعد يوم.

وبسبب عدد اللاجئين الكبير تجمّع اللاجئون في «مخيم الأليانس»، نسبة إلى بناء كبير حائل اللون يدعى «مدرسة الأليانس»، التي أصبحت خاصة بالتلاميذ الفلسطينيين.

في نهاية خمسينيات القرن الماضي أو في بداية ستيني اته، كنا نمر، وقد أصبحنا شباباً، إلى جانب «مدرسة الأليانس»، ونرى إلى بقايا رسم على جدارها الخارجي، لصبية يتطايرون في الهواء يلعبون كرة القدم. كان في أوضاع الصبية ما يثير الفضول، بأجسادهم الطائرة المحوّطة بالفراغ، كما لو كانوا يستندون إلى أرواحهم أو يمسكون بحبال من هواء. قال أحدنا، وكان قومياً عربياً، بلهجة فخورة: هذا من رسم غسان كنفاني، الذي بدأ بنشر قصص قصيرة، آنذاك، يقرؤها القوميون العرب قبل غيرهم.

أكمل القومي العربي، الذي أصبح تاجراً ثرياً وصرعته نوبة قلب في إحدى دول الخليج: «كان غسان يعرف هذه المنطقة معرفة كاملة، فقد عمل أستاذ رياضة في مدرسة الأليانس، وكان يرسم في أوقات الفراغ، ويتحدّث مع التلاميذ الفقراء ويتقصّى أحوالهم، ويدرجهم في قصصه القصيرة». نظر إلى الجهة المقابلة، وإلى الأسفل قليلاً، وقال: «ذلك سوق الخضار الذي أخذ منه غسان قصة سمّاها: (زمن الاشتباك)، تحدث فيها عن صبي فقير عثر على (خمس ليرات)، وأخذ بالركض بعد أن ظنّ أن «الشرطي» رآه، وأسرع في ركضه بعد أن ظن أن المشترين والبائعين يطاردونه، وأمعن في الركض حين اعتقد أن المدينة كلها تلاحقه، وسابق الهواء حين استقر في نفسه أن البشرية كلها تجدّ في إثره».

تابع القومي العربي الراحل وقال: «الأرجح أن الصبي الذي سابق

الهواء كان غسان نفسه، والأرجح أن غسان بالغ في الوصف، لأنه كان مأخوذاً بفكرة المطاردة، ويرى الحياة كلها لعبة بين صياد وطريدة، بل كان يقول لنا، وهو يشرح لنا فكر القوميين العرب: لا تنجو الطريدة إلا إذا عرفت كيف يفكّر الصيّاد، لأن الركض وحده لا يقود إلى النجاة».

لست أدري إن كان القومي العربي، قد ساوى بين الاشتباك والمطاردة، ذلك أن غسان كان مسكوناً بفكرة الاشتباك، التي تعني المواجهة لا الهرب. ولعل فكرة الاشتباك هي التي دعته إلى الكتابة عن موظف الحدود الفاسد و«المختار» المتواطئ والفلسطيني المتداعي الذي قايض ذاكرته بقروش قليلة، وإلى كتابة قصته القصيرة المدهشة «العروس»، حيث البندقية امتداد للفلسطيني الأصيل. كل شيء فعله غسان أو اقترب منه كان ينطوي على شكل من الاشتباك: الصبية المتطايرون في الهواء كانوا يشتبكون مع الكرة ومع خصم يرونه ولا يراه غيرهم، والكتابة المقاتلة اشتباك مع كتابة أخرى، وللأفكار داخل غسان معاركها التي لا تنتهي، بدأت بقومي عربي وانتهت بمثقف يحاور الأفكار جميعاً، وللجسد المريض بالسكري اشتباك لا يخرج منه منتصراً.

وما الاشتباك المتواتر إلا فعل تقوده ذات حرة، تقوم بما ترغب به وتنحّي مسبقاً أحكام الآخرين. روى الراحل العزيز عبد الرحمن منيف حكاية شهدها، أو سمعها من غيره: «كان القوميون العرب، وغيرهم من أنصار الثقافة والسياسة، يترددون على مطعم «فيصل»، القريب من الجامعة الأميركية في بيروت. دخل غسان كنفاني، مرة إلى المطعم ومعارفه يتناولون الغداء، وكان شاحباً وضاحكاً معاً، كما كان دائماً. حين دعاه معارفه إلى مقاسمتهم الطعام قال: «سبقتكم»: أخذت النسخة الأولى من كتابي الجديد وذهبت إلى مطعم، تناولت الغداء وطلبت من صاحبه أن يقبل كتابي ثمناً لوجبة، لأني لا أملك ما يكفي من النقود، ورضي صاحب المطعم وخرجت سعيداً. قال عبد الرحمن: قد تكون القصة مسلية، فقد ضحك غسان وأضحك غيره عليه، لكنها «يبدو لي» (وهي من تعابير عبد الرحمن الأثيرة) تعبير عن عفوية غسان الطليقة، التي كانت تتيح له أن يختبر الحياة، بلا قيود، وأن يختبر ذاته وهو يختبر الحياة».

في القصة الساخرة، التي تذكّر بقصص (أو. هنري) ربما ما يستأنف فكرة الاشتباك، التي تبدأ بثمن وجبة بسيطة، أو تمتد بعيداً إلى التنسيق مع «الجيش الثوري الياباني» من أجل ضرب المصالح الإسرائيلية، وقد تتمهل قليلاً وتواجه روائياً كبيراً، يريد غسان أن يستفيد منه وأن يطبق تقنيته على «مادة فلسطينية»:

روى الصحافي الفلسطيني المعروف بلال الحسن أن غسان، وهو يكتب روايته «ما تبقى لكم»، كان يقول له: كل يوم يجلس إلى جانبي الروائي الأميركي وليم فوكنر، أحاوره في روايته «الصخب والعنف»، وآخذ مكانه بالطريقة التي أريدها، واستعير منه تقنية الأصوات المتقاطعة وتقطيع الزمن، وأصل إلى ما أودّ الوصول إليه. لم يكترث غسان بالفرق بين قدرين من أقدار الحياة، كان للأميركي المكان والزمان اللذان يريد وكان لغسان «أحد عشر يوماً» كي ينهي روايته، وكانت له متاهة بيروت التي دخلها عملاء الموساد ومزّقوا غسان وابنة أخته بعبوة متفجّرة.

«مَنْ يسيطر على اللحظة يفعل ما يريد» قال غسان للدكتور إحسان عباس، أجابه الأخير: «اهدأ قليلاً يا غسان»، ردّ الأخير على أستاذه

الجليل: «لا يليق الهدوء بحالتنا، وعندي أشياء كثيرة يجب أن أقوم بها». هذه الأشياء الكثيرة، كما هذه الـ «يجب» المتواترة، هي التي دعت د. إحسان عباس إلى القول: «كان موزعاً على أكثر من مكان ووظيفة»: يذهب إلى الجريدة والمخيم ومركز الأبحاث وإلى اجتماعاته الحزبية وإلى مكان خامس أكرم به عليه اقتصاد الوقت، فيكتب المقالة والدراسة والرواية والقصة القصيرة و«التعميم الحزبي» ... كان يسير مع ذاته الأولى ويستولد منها ذاتاً ثانية، مفسحاً الطريق لذات ثالثة متوالدة، وكان عليه أن يجمع هذا «الكثير» في واحد، معتمداً الإرادة والهوى وترويض اللحظة وقلة النوم، ومعتمداً على أطياف ذاكرة مؤرّقة تحمله إلى حيث تريد، ويقنعها بالإقامة معه طويلاً.

التقى توفيق صالح، وهو يتهيأ لإخراج فيلم «المخدوعون»، غسان في مقهى بيروتي، قريب من منطقة «الروشة»، في الساعة السادسة مساء، وطلب منه أن يكتب حوار الفيلم، حفاظاً على روح المعنى الموزّع في تفاصيل «رجال في الشمس»، وعلى اللهجة الفلسطينية التي تتحدث بها شخصيات الرواية. نظر الروائي إلى ساعته، وقال بنبرة عادية تشي بروح صاحبها: نلتقي غداً في مثل هذه الساعة، في هذا المكان. لم يستفسر الفنان المصري عن شيء، أغلق موضوعه وتابع حديثاً عادياً، واحتفظ بتلك الإجابة غير المتوقعة، التي ينساها بعض «الأدباء» بعد انتهاء اللقاء. في اليوم التالي، وفي الموعد المحدد، جاء صالح وكان غسان هناك، أعطاه بصوت عادي الحوار المطلوب، وعاد إلى مشاغله العادية. كل شيء بدا عادياً باستثناء هذه «الأربع والعشرين» ساعة غير العادية، التي توزّعت على التفكير والكتابة والالتزام بالقول، ولم يكن فيها مكان للراحة والنوم. إنها الفلسفة الخاصة برجل يضع كل يوم في مكانه المحدد من مدار السنة، ويحاصر نفسه بزمن مقيّد كي

يكون طليقاً.

كان المخرج يدرك أن هذا السلوك غير عادي، وكان العاملون في «مركز الأبحاث»، الذين يردّدون الحكاية، أن ما قام به غسان لا يقوم به غيره، باستثناء غسان الذي كان يعتقد أن عمله العادي امتداد لأعمال «عادية» أخرى، تفصح عن علاقة «اللاجئ» بزمنه، وعن متطلّبات «الرسالة»، التي يؤديها إنسان حذف المسافة بين الموت والحياة. حين كان غسان يزجر عجز اللاجئين كان يقول: «يطوون هزائمهم كما تطوى الرايات»، و«ينشرون عجزهم على حبال الهزيمة». ولم يكن سلوكه إلا ردّ روح غاضبة على العجز والهزيمة، متكئ على طيف «الإنسان الأعلى»، الذي يرفع راية المقاومة ويلقي بأعلام الهزيمة إلى النار. كان غسان يوسّع النهار، مستعجلاً رحيل الليل الفلسطيني، مفترضاً أن في الإرادة ما يعيد تعريف الليل والنهار.

في يوم قائظ، وعلى ضفاف النيل، وفي حوار أنيس حول نجيب محفوظ وعاداته، وحول أحوال البشر وطبائع الحياة، استذكر توفيق صالح أشياء من غسان: «أعطاني غسان، ذات مرة، موعداً في مجلة الهدف، في الساعة الحادية عشرة صباحاً. صادف في ذلك اليوم أن «الجبهة الشعبية»، وكان غسان متحدثاً باسمها، أنْ قامت بعملية تناقلتها وسائل الإعلام. راجعت نفسي وقرّرت إلغاء الموعد، لكن الفضول ، كما ضيق الإقامة في بيروت، دفعاني دفعاً إلى الذهاب. دخلت متلكئاً إلى المكان المحتشد برجال الإعلام، ووقفت حيث أستطيع الوقوف. في الساعة الحادية خرج غسان من مكتبه، وكان بابه مفتوحاً، حيّاني ونظر إلى الساعة وطلب مني الدخول، وسألني عما أريد، كما لو كان المكتب فارغاً، أو كما لو كان قد انتزع قسطاً من ذاته ووضعه تحت تصرفي. أذكر أنني سألته

أكثر من سؤال، وأذكر أن كان يجيب ويرد على الهاتف بكلمات إنكليزية، وأنه كان يتحدث إليّ وإلى آخرين حوله، وأذكر أنني كنت أتابع إجاباته الواضحة وهو يتابع أسئلة الصحافيين التي تقع عليه، وأذكر أنني خرجت من مكتبه ومعي إجابات الأسئلة التي طرحتها... بدا لي أنه أكثر من فرد وأكثر من صوت وأكثر من مسؤول..».

إذا كان في حياة البشر ما يفصل بن الزمن الفيزيائي، المحدود بالمرئي والمباشر والمعيش، والزمن النفسي المتمتع بديمومة لا ترى، يساكنها الانفعال والرغبة والانتظار، فقد كان عند غسان «زمن الروح المتمرّدة»، الذي تحرّر به إنسان تحرّر من سطوة العادات، وخلق شيئاً مبدعاً حائراً قلقاً متحرّكاً، لا تقع عليه العادة إلا وطردها سريعاً. فالعادة استبداد لا يقبل به إنسان، يحرق «خيمة» أولى وينصب «خيمة أخرى»، ينتظرها الحريق.

كيف يمكن توسيع الزمن والسيطرة عليه، وكيف تشتق الروح الكارهة للعادات زمنها الذي لا عادات فيه، وكيف يذهب الصبي إلى صحراء موحشة ويستأنس بلهاثه؟ هذه أسئلة من حياة قصيرة بدت، لحظة انطفائها، أنها لا تشكو من القصر أبداً. فقد ترك غسان وراءه أربعة مجلدات، عالج فيها القصة القصيرة والمسرحية والرواية و...، وترك وراءه مئات المقالات السياسية، و«فارس فارس»، الاسم المستعار، الذي كان يتيح لغسان أن يبوح ولا يعرفه أحد، وأن يضيف إلى «وجوه الكثير» بعداً جديداً. ولهذا كان أول من كتب عن «الأدب الصهيوني» وعن «أدب المقاومة في فلسطين المحتلة»، وهو الذي أضاف جديداً إلى القصة القصيرة العربية، كما قال يوسف إدريس، وصاحب أفضل معالجة لثورة «1936 – 1939»، التي استخلص منها قولاً جوهرياً: «الذين يقودون

لا يقاتلون، والذين يقاتلون لا يقودون». تطلع ذلك الإنسان الناحل القامة إلى «إنسان أعلى»، يقترحه الفقراء المتمرّدون، يوحّد بين القيادة والقتال، ويطرد «المخاتير» و«المتزعّمين» خارجاً.

4– لماذا لم يكمل غسان كنفاني رواياته؟

ترك غسان ثلاث روايات غير مكتملة، أو هكذا تبدو، تميّزت بالكثافة الفكرية وبجدة فنية: أولاها «العاشق»، الرواية الملحمة، التي استعادت أطياف ثورة 1936 1939، التي وضع عنها غسان دراسة ، هي الأفضل، ربما، في مجالها. قرأت الرواية زمن البراءة، الذي أعقبه زمن الإثم، حين كان الفلسطيني البريء وأرضه كياناً واحداً، يتناجيان ويكمل أحدهما الآخر بتناغم، يصيّر الشوك ورداً والخيول دليلاً في الطريق. غير أن العمل لم يكتمل، دون أن يمنع هذا غسان، القلق المثابر، عن تعقّب موضوعه بأشكال أخرى، فكتب «بنادق في الجليل»، التي يمكن أن تكون تمهيداً لـ «العاشق» أو تتويجاً لها، وكتب قصة قصيرة عامرة بالإشارات والرموز عنوانها: «العروس»، التي هي بندقية فاتنة، يفتش عنها محارب ساوى بين «المرتينة» والحلم.

من هامش المخيم والكرامة المفقودة المستعادة، جاءت «الأعمى والأطرش»، الحكاية الأمثولة، التي حكت عن رذائل العادات الثابتة وبؤس الوعي المستقر، وعيّنت الفضول المعرفي المتحالف مع المجازفة، مرجعاً للفضيلة، ذلك أن في الفضول النجيب ما يعوّض عن السمع والبصر، وما يفتح لـ «الإنسان اللاجئ» طريقاً يحرّره من العماء والمخيم معاً. كتب غسان ، في «الأعمى والأطرش»، صفحات سعيدة، اعتبرها محمود درويش أفضل ما جاد به الأديب، وتوقف في منتصف

الطريق.

وهناك «برقوق نيسان» آخر ما كتب، أو آخر ما حاول كتابته، التي تبدأ بمشهد جليل، وتمر على التاريخ وعلى فلسطينيين محدّدي الأماكن والأزمنة، وتصل إلى موقع أخير، يبدو للقارئ أنه ليس الموقع الأخير تماماً.

السؤال المنتظر: لماذا لم يكمل غسان رواياته الثلاث؟ للإجابة أكثر من وجه، لا تصل جميعها إلى جواب أخير.

يُرَدّ الجواب البديهي إلى رحيل غسان المبكر، الذي قسمه العنف الإسرائيلي إلى شطرين ومزق متناثرة. فلو كان الزمن أكثر تسامحاً، لعاد إلى أوراقه وأقلامه وأكمل ما بدأه. لكنها مأساة السيرة الذاتية الفلسطينية، التي تنقسم إلى وطن ومنفى، وإلى شباب وكهولة مسروقة، وإلى اغتراب وتحقق لا يراهن عليه.

يأتي الجواب الثاني من فرضيات في القراءة، تعتبر أن غسان كتب ما يريد، وأنه لم يرجع إلى أعماله، التي تبدو ناقصة، لأنه كان مقتنعاً أنها جاءت بالسؤال والجواب، ولا تحتاج إلى حذف أو إضافة. فإذا كان المطلوب الاحتفاء بزمن البراءة، الذي سبق زمن اللجوء، فإن ما قالت به «العاشق» جاء واضحاً ، ذلك أن «زمن الإثم» عبّرت عنه «رجال في الشمس» بوضوح لا يضارع.

وكذلك الحال في «الأعمى والأطرش»، التي هي، منطقياً، مقدمة لرواية «أم سعد» وحديثها عن «خيمة عن خيمة تفرق»، إذ خيمة البؤس

تجسيد للعمى والصمم، وخيمة الفدائي مكان عاقل نظيف لا موقع فيه للوعي الضليل. ولن يختلف الأمر في «برقوق نيسان»، القائمة على التكافل الفلسطيني الذي يعبّد «درب الفداء»، ويجابه عنف الآلة الإسرائيلية بجمالية التكامل.

يتمثّل الجواب الثالث في منهج غسان، الذي جمع بين اقتصاد الزمن وواجب الرسالة، واعتبر أن ما يجيء به جيل تطوره أجيال لاحقة، وأن الأساسي هو «الفكرة النواة»، التي تعلن أن للمأساة الفلسطينية شكلاً أدبياً خاصاً بها، وأن أدب فلسطين بحث أدبي لا يكتمل، يقع في حيّز التجريب ولا يأخذ صيغة أخيرة. ولعل المنظور التجريبي، الذي يلاحق قضية شائكة سائرة إلى «هدف ما»، هو الذي يفسّر اقتراحات غسان الأدبية المتلاحقة، التي تنفي كل اقتراح بآخر، يجاوره ولا يتجاوزه بالضرورة. ولهذا تبدو «برقوق نيسان» اقتراحاً لكتابة رواية عن الكفاح الفلسطيني، تبتعد عن الرواية بالمعنى التقليدي. ولأنها اقتراح، فهي لا تحتاج إلى حذف وإضافة، ذلك أن توسيعها يعود إلى الذين يستأنفون الاقتراح ويقبلون به. ليس هناك وقت، كان يقول غسان لنفسه ولرفاقه في الجبهة الشعبية وكان رفاقه يفهمون ما يقول، وكان يعيش ما يقول، تاركاً ما وصلت إليه الكتابة، وذاهباً إلى بيت «أم سعد».

يتوزّع الجواب الأخير على اتجاهين: اتجاه أول حدوده غياب اليقين، إذ في الشكل أكثر من شكل، وفي الجسد أكثر من جسد، وفي العمل السياسي أكثر من رهان، ولنهاية الحكاية نهايات. ولأن التعدّد، في الفلسفة، هو اللايقين، فقد رأى غسان أن النهاية الأكيدة شأن من شؤون الميتافيزيقيا.

يُردّ الاتجاه الثاني إلى الأدب التحريضي، الذي يضيف إلى الواقع شيئاً لا يقرّه غسان كثيراً، وإلى الرهان الذي سار غسان وراءه طيلة حياته، ولم يهجس بالنصر أو بالهزيمة.

اتكاء على وقائع الفرار والمخيمات، وخداع الطريق الذي يشد الفلسطيني إلى حيث يريد، أدرك غسان أن جوهر الشرط الفلسطيني من جوهر المأساة، التي تعد الفلسطينيين بالخيبة وترمي بهم إلى جهنم، وأن الفلسطيني الحقيقي بطل مأساوي، يصارع الصهيوني في الصحراء ويصرعه، وينتظر طلقة قادمة. قاده وعيه العميق بالمأساة، وهو وعي صحيح ، إلى كتابة أفضل أعماله: «رجال في الشمس» ، و«ما تبقى لكم»، التي اعتبرت المغامرة غير المحسوبة مدخلاً إلى الحياة. المأساة وجود ملموس له قامة جبل، و«البشارة» احتمال تنتظره أرواح مقاتلة.

في مرحلته التحريضية، المتمثلة في «أم سعد» و«عائد إلى حيفا» وجزء من «ما تبقى لكم» أضاف غسان إلى الواقع شيئاً مسايراً سياقاً أيديولوجياً سياسياً، قضى بضرورة التبشير، مخالفاً ما اقتنع به في البدايات، حين قال: «أريد أن أرسم الواقع كما هو، مئة بالمئة». ولهذا بدا غسان منقسماً بين تصوره العميق للشرط «المأساوي» الفلسطيني الذي يحتاج إلى التأمل والنفاذ إلى الحقائق، وتصوره «المتحزّب» المتفائل، الذي قاده، في بعض الأعمال، إلى مسايرة الظواهر. ولعل هذا التوتر بين «الوعي الأصلي» و«الوعي الحزبي» هو الذي قاد غسان إلى تعليق نهايات رواياته، مقيماً حداً فاصلاً بين «فكرة الرهان» والنهايات المكتملة.

سمح الرهان بكتابة رواية وثيقة: «أم سعد» ، الإنسانة التي عرفها

وعرفته، مواجهاً التبشير بالمعيش، وقاده الرهان إلى فكرة الوثيقة في «برقوق نيسان»، التي كتب فيها عن مناضلين يعرفهم، محاذراً مرة أخرى أن يضيف إلى الواقع شيئاً لا يحتمله. كان يكتب ، في الحالين، عن الواقع المعيش، الذي يضيق بالشعارات الانتصارية.

ماذا تفعل يا «فارس فارس»؟ كان يقول اللبناني محمد دكروب لغسان، وكان الأخير يجيب: أكتب. ولكن ماذا تكتب يا غسان: قصة قصيرة أم رواية أم مسرحية أم بيان حزبي، أم دراسة عن جيفارا؟ كان يضحك ويجيب: كل هذا معاً. يتابع دكروب مشاكسته: ما هو الأساسي وما هو غير الأساسي في كل هذا؟ كان غسان يجيب: الأساسي يا رفيقي أن أكتب عن القضية الفلسطينية.

استطاع الكتابة من سن الثامنة عشرة إلى السادسة والثلاثين من عمره، وذهب إلى موته في الثامن من تموز يوليو عام 1972.

العار الفلسطيني في روايته

ما الذي تبقى من أديب فلسطيني يدعى غسان كنفاني، بدا في حقبته منتصراً، ويبدو اليوم «طللاً» نزلت به هزيمة ساحقة؟ ولماذا بدا على ما بدا عليه، في زمن بلاغة قومية انتصارية وحديث متفائل عن «حرب الشعب» و«صراع الطبقات»، وفقد اليوم ما بدا عليه فقداناً كاملاً؟ يأتي الجواب من شكل القراءة في حقبتين مختلفتين، تقولان ما يريد السياق وتضعان ما أراد الكاتب قوله جانباً. وشكل القراءة هذا له ما يبرره، ذلك أن الفلسطينيين أسهبوا في «تسييس الكتابة»، واقتصدوا في إدراك معنى السياسة.

رأت كثير من النصوص الفلسطينية التحريضية، في زمن «الكفاح المسلح» بخاصة، في الفلسطيني كياناً متجانساً، يقاتل كياناً متجانساً

آخر يدعى: «الصهيوني. أخذ الأول صفات إيجابية متعددة، تجعله منتصراً في معركة ضد عدو له صفات مغايرة، كما لو كان الأول رسول الخير والنقاء، وكان الثاني مرآة للشر والخطيئة. عبّرت عن هذه القسمة الباترة رواية جبرا إبراهيم جبرا، التي نسبت الفلسطيني إلى أرض مقدسة، وآمنت أن قتاله مكلّل بالانتصار[1].

تعامل غسان كنفاني مع فلسطيني آخر، لا يحسن القتال إلا إذا أحسن إصلاح ذاته، وأدرك وجوه النقص والخلل في وعيه وممارسته ووعى بشكل موازٍ، أسباب «فراره» من فلسطين، والأسباب التي أقام عليها الصهيوني انتصاره. قال «الأديب» الراحل بشكلين أساسيين من القتال: قتال الفلسطيني ضد جوانب السلب في شخصيته ووجوده، وقتاله ضد عدوه، معتبراً القتال الأول مقدمة للقتال الثاني وشرطاً له، ذلك أن القتال المؤسس على الخطأ، يضيف إلى الهزائم السابقة هزائم جديدة. ولهذا لم يتعامل كنفاني مع «الفلسطيني» بصيغة المفرد، ولم يقبل بوهم الفلسطيني المتجانس، قائلاً بفلسطينيين يحملون قيماً مختلفة، تحيل على الصدق والإخلاص والتضحية، أو على كل ما يخالف ذلك مخالفة كاملة.

أقام قسمته على فكرة «العار»، الذي لحق بالفلسطينيين الذين «فرّوا» من وطنهم، والذي توالد من جديد في أرض الغربة واللجوء. واتكاء على هذه الفكرة، ونقيضها فكرة الشرف، كتب غسان رواياته ما اكتمل منها وما منعه الموت عن إكمالها.

---

1) انظر جبرا إبراهيم جبرا: «صيادون في شارع ضيق»، دار الآداب، بيرت، 1974، و«البحث عن وليد مسعود» الصادرة عن نفس الدار عام 1978.

1. رجال في الشمس وثمن العار:

أنهى غسان كنفاني روايته «رجال في الشمس» 1963 بالسطور التالية: «انزلقت الفكرة من رأسه ثم تدحرجت على لسانه: «لماذا لم يدقوا جدران الخزان؟.. دار حول نفسه دورة ولكنه خشي أن يقع فصعد الدرجة إلى مقعده وأسند رأسه فوق المقود: لماذا لم تدقوا جدران الخزان؟.. وفجأة بدأت الصحراء كلها تردد الصدى: لماذا لم تدقوا جدران الخزان؟ لماذا لم تقرعوا جدران الخزان؟ لماذا ؟ لماذا ؟ لماذا ؟» [2].

تتأسّى الجملة الشهيرة: «لماذا لم يدقوا جدران الخزان؟» على لاجئين فلسطينيين ماتوا اختناقاً في خزّان شاحنة وهم يتسلّلون إلى الكويت، وترثي فقراء مستسلمين لم يعرفوا الاحتجاج، وتأمّل التصاقاً بالموت أقرب إلى الأحجية. بيد أن دخول الصحراء، بصوتها الشاسع، يضع الأخلاقي والوجداني جانباً، ويفصح عن مأساة تتجاوز «الضحايا»، كما لو كان في اختناقهم مأساة كاملة مغلقة، لا سبيل إلى الفرار منها. توحي الجملة المتكرّرة، المحتشدة باللوم والغضب، برغبة «الكتابة» في إنقاذ الذين لم ينقذوا أنفسهم، مستنفرة المحاكمة العقلانية والحس الإنساني السليم، فهؤلاء الذين قامروا بحياتهم البائسة تطلعوا إلى حياة مغايرة. غير أن قراءة نص غسان تؤكد شيئاً آخر، وتقوله مرتين: تقود صفات «الضحايا»، المثقلة باليأس والإحباط وفقر الخبرة إلى نتيجة وحيدة هي: الموت، وتقول أيضاً: أغلق الروائي أمام «شخصياته» المنافذ جميعها ودفعهم، بشكل مستقيم، إلى موت مؤكد لا كرامة فيه، مقتنعاً الاقتناع كله بأن الموت المهين هو القدر الوحيد المتاح لشخصيات بائسة متساقطة.

(2) غسان كنفاني في: الآثار الكاملة الروايات، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، 2005، ص: 152.

استهل الروائي حكايته بفلسطيني متعب القلب تذكّر، وهو ملقى في صحراء غريبة، بأنه ترك قلبه السليم في الأرض التي تركها، وأن «الغربة الآسنة» دفعت إلى صدره قلباً مريضاً: «ليس يدري لماذا امتلأ، فجأة، بشعور آسن من الغربة، وحسب لوهلة أنه على وشك أن يبكي».. ص: 38». أفضت الغربة الموحشة إلى يقظة مفاجئة متأخرة، فبين رمل الصحراء وتراب الأرض البعيدة مسافة تستدعي «البكاء»، وتأمر بتقريع أرواح ضلّت السبيل. دفعت اليقظة المتأخرة الفلسطيني المهان إلى تذكّر فلسطيني شاء خياراً آخر، وفّر عليه المهانة والتسلسل المهلك في الصحراء. ولهذا تعقد الرواية، في صفحتها الرابعة، مقارنة بين الفلسطيني التائه في الصحراء ومعلم «يجيد إطلاق الرصاص»، سقط مدافعاً عن أرضه، وحظي بـ «نعمة إلهية» وافرة، وفرت عليه «الذل والمسكنة وأنقذت شيخوخته من العار»، كما تقول الرواية.

عقدت الرواية، في مستهلها، مقارنة بين شخصين وقدرين، عنوان أحدهما البندقية والقتال والموت الكريم والالتحاق بتراب الأرض، وعنوان ثانيهما الفرار والمسكنة والتيه في الصحراء. أفصحت الرواية عن الموت القادم قبل مجيئه، مقررة موتاً، هو عقاب وأمثولة معاً: عقاب عادل لشخصيات فقيرة لا تعرف الحسبان، موت أمثولة، استحقّه فلسطيني خلط بين تراب الوطن ورمل الصحراء. حمل الفلسطيني، قبل يقظته المفاجئة المتأخرة، وهماً يعبّد الطريق إلى الموت، وحمل بعد يقظته يأساً فادحاً يمنعه من الوقوف. صاغ مصيره من الوهم والعجز، وصاغه مصيره ضحية ملقاة على قارعة الطريق.

لا تحيل الجملة الشهيرة: «لماذا لم يدقوا جدران الخزان ؟»، والحال هذه، على تعاطف أخلاقي، فالذين فروا من أرضهم لا يستحقون

التعاطف، ولا تطرح سؤالاً يبحث عن إجابة، لأن الإجابة جاهزة واضحة في مبتدأ المسار. وإذا كان هناك من سؤال، فهو احتجاج على الخروج من الوطن لا على صمت الهالكين، بل إن في عنف السؤال وحرقته دعوة إلى الفلسطينيين، كي يفكروا في ماضيهم وحاضرهم ومستقبلهم، فقد اقترفوا إثماً لا يمحوه إلا عقاب شديد، ولا يغفره إلا ما يردّ على العار بفضائل غير مسبوقة، تدير ظهرها إلى الصحراء وتسلك درباً صعباً إلى الوطن. وواقع الأمر أن غسان، الذي عاش تجربة اللجوء في أكثر أشكالها بؤساً، كان خجلاً من شعبه اللاجئ، وغاضباً شديد الغضب على شخصياته، التي لم تشعر بالعار، أو شعرت به في لحظة مفاجئة متأخرة. ولهذا حكم عليها بالموت، بعد أن ألقى ضوءاً نافذاً على فقرها الروحي والمعنوي: فهي لا تعرف الحسبان ولا تحتج على الإهانة، واهنة مكسورة ضعيفة الذاكرة، مشدودة إلى أحلام صغيرة وأوهام كبيرة، أنانية تعرف الهرب ولا تعرف المواجهة، تعيش في ماضٍ لم تحسن الدفاع عنه، وفي حاضر لا تعرف التعامل معه، وتبني أحلاماً من ورق وتراها في مستقبل لا تدرك من معناه شيئاً.

يأتي الموت إلى شخصيات «رجال في الشمس» من طرق متعددة: تموت لأنها تفتقر إلى الوعي والمسؤولية، وتموت منصاعة إلى «خالقها»، أي الروائي، الذي رأى في استمرارها في الحياة عاراً، وتموت لأن الموت مكتوب في مسارها، بسبب قدر أقرب إلى اللعنة. فاللاجئ الباحث عن «الزيتون» في الصحراء يحصده الموت، والمعلم النزيه المقاتل يسقط قتيلاً فوق أرضه، وقريب الشاب المهان قاتل وانتهى إلى التراب، والأنثى المبتورة الساق لها وجه مريض لا شفاء له.. يتساقط الموت على الفلسطيني، في رواية غسان، إن قاتل وتمسك بشرفه، أو إنْ هرب مع عاره ولاذ بالفرار. يضيء هذا الوضع المأساوي السؤال اللحوح:

«لماذا لم يقرعوا جدران الخزان؟»، الذي يترجم قدراً ظالماً لا هرب منه، قرع الفلسطيني الجدار الصدئ أو ارتضى بمصيره ورحل صامتاً. وهذا الإشكال هو الذي يعين رواية غسان عملاً أدبياً فريداً، في مجال الأدب الفلسطيني، نفذ إلى قرار المأساة الفلسطينية بشكل غير مسبوق ولم يتكرر، حتى الآن[3].

استهل غسان نصه بفلسطيني عاجز نموذجي، يجمع بين الوهم والشيخوخة وضعف الحيلة، وأعاد إنتاجه في شخصيات فلسطينية متعددة، تختلف في العمر وتتوازع جميعاً تداعياً قاتلاً. فالشخصية المفتتح (أبو قيس) احتاجت إلى «عشر سنوات كبيرة جائعة»، كي تصدق أنها فقدت الشجر والبيت والشباب والقرية كلها، والشاب (أسعد) لا يحرك ساكناً أمام ضابط بصق «على وجهه وأخذت البصقة تسيل ببطء نازلة من جبينه»، ولا أمام إنسان بليد سخر منه ونصحه بأن «لا تأكله الجرذان قبل أن يسافر». وكذلك حال «الصبي» الذي «مضغ ذله» حين هوت على وجهه يد ثقيلة متوعدة، وصفه صاحبها بأنه «ينوح كالأرامل ..» والدليل العنيّن، الذي قاتل وانهزم، ولا يزال يعتقد أنه قادر على «قيادة» غيره إلى «أرض السعادة». بل إنّ في هذا الدليل طريقاً آخر إلى الموت، فهو دليل جثّة، لا يستطيع الإنجاب، يسوق أمامه جثثاً أخرى، منتظراً بدوره قبراً مزبلة. رسم غسان شرطاً مأساوياً، يفتقر إلى أبطال مأساويين، شرطاً أقرب إلى اللعنة، وقوده بشر أضيق من شرطهم التاريخي، ووجهه الآخر صهيونية مقاتلة حملت معها، إضافة إلى الدعم الإمبريالي، حداثة أوروبية تضبط العلاقة بين الهدف والغاية. وإذا كانت المأساة، في بعدها التاريخي، تصدر عن مشروع صهيوني

(3) انظر في هذا الموضوع الدراسة اللامعة للناقد الفسطيني يوسف سامي اليوسف: «غسان كنفاني: رعشة المأساة»، دار أزمنة، عمان، 1999.

وعن فلسطيني يسير في درب لا يسيطر عليه، فقد جاء بعدها الوجودي من «صدفة عمياء» وقعت على الفلسطيني ولم تقع على غيره. فقد اختار المشروع الصهيوني فلسطين، بعد أن صرف النظر عن أوغندا وسيناء وموزامبيق والأرجنتين، مدخراً شقاء الاختيار لشعب فلسطين، الأمي في أغلبيته الساحقة، المحمل بإرث عثماني من الفقر والتخلّف وغياب الوحدة المجتمعية [4]. وهذه الأسباب تمنع الفلسطيني، الذي يعيش شرطاً مأساوياً، عن أن يكون بطلاً تراجيدياً، الذي يحتشد، منطقياً، بقيم نبيلة يفتقر إليها اللاجئ الباحث عن ظلال الزيتون على حدود الكويت.

لماذا وضع الروائي في الشخصيات صفات تقودها إلى الموت، ولماذا اختار لها مصيراً قاسياً، جمع بين الموت اختناقاً والانتهاء إلى مزبلة، بلا قبر أو صلاة أو طقوس؟ يأتي الجواب من اتجاهين: تصور غسان كنفاني لمعنى اللجوء و«الفرار» من الوطن، ووظيفة الكتابة الأدبية في هذا التصور. كثف كنفاني معنى اللجوء في أحوال شخصياته وأقوالها وممارساتها، مساوياً بين الخروج من فلسطين والعار، فلا يهرب الإنسان من وطنه إلا إذا كان غير جدير به، وغير جدير بصفة الإنسان السوي أيضاً. يتعين الموت في هذا التصور عقاباً عادلاً، إنه ثمن العار، بقدر ما يفصح الموت المهيمن عن عار واسع، يكسو الفلسطيني من رأسه إلى قدميه. ولعل مساواة التخلي عن الوطن بالعار الشامل هي التي قادت غسان إلى وضع أبطاله في دائرة مغلقة مهلكة، لها باب وحيد ينفتح على الموت والمزبلة، وهي التي أملت عليه أن يسوقهم، بقسوة باردة، إلى مصيرهم الحزين.

(4) د. عبد الرحمن الكيالي: تاريخ فلسطين الحديث الطبعة الثالثة المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1973، ص:43-45.

إذا كان قبر الفلسطيني المكشوف جاهزاً في بداية الطريق أو في نهايته، فلماذا أرهق غسان كنفاني قارئه بسؤاله اللحوح: «لماذا لم يقرعوا جدران الخزّان؟». ينطوي الإقرار بالموت الفلسطيني الذي لا هروب منه على الجواب، ذلك أن السؤال يدور حول عمق واتساع المأساة الفلسطينية، التي تلتبس باللعنة،لا حول لاجئين ضائعين خدعهم الطريق. انطلق غسان من فكرة العار، داعياً إلى «شرف فلسطيني» يمحو العار، ويعيد الفلسطيني «سوياً» كما كان. مع ذلك فإن منظوره، كما جاء في الرواية، يتوزع على اتجاهين: اتجاه أول علاقاته اللجوء والوطن، يقضي بتوليد وعي فلسطيني متحرر من الأوهام، ويضبط العلاقة بين الغاية والوسيلة. والواضح في هذا الاتجاه: بطولة القيم، فقد يقود الحس الأخلاقي النبيل إلى «الكفاح المسلح»، بينما لا يفترض الكفاح المسلح، دائماً، الانضباط الأخلاقي. يحيل الاتجاه الثاني على «اللعنة»، أو على تعقد المأساة الفلسطينية، التي تواجه إسرائيل والحداثة الأوروبية التي أنتجتها، مصيّرة «تحرير فلسطين» إلى هدف صعب «بعيد».

قرأ غسان مأساة الفلسطيني في الفرق بين إمكانياته وإمكانيات عدوه، وفي «تخلّف عربي» لا أفق له. فـ«العرب» الذين قابلهم الفلسطيني، وهو ينتقل من بلد عربي إلى آخر، يتميّزون بالغلظة والجشع والكذب، يضيفون إلى الفلسطيني المقهور قهراً جديداً. لا غرابة ان كتب غسان رواية مفعمة بالتشاؤم في زمن بدا متفائلاً: 1963، حيث القومية العربية صاعدة وحديث التحرر مسيطر و«الناصرية» عالية الصوت في كل مكان، موحياً بأن للفلسطيني قدراً خاصاً به لا يتقاسمه مع جميع العرب.

واجه غسان فكرة العار بفكرة الشرف، مبتدئاً من الإنسان لا من

«قدسية التراب»، موحّداً بين الانتماء إلى فلسطين وبطولة القيم. قاده الاتجاه الثاني القائم في سؤاله إلى فكرة أكثر تحديداً عنوانها: الاستعداد الكامل الطليق للموت، الذي يجعل الإنسان الحقيقي سيداً على مصيره، ويتيح له أن يواجه «اللعنات» متى يشاء وبالطريقة التي يشاء. فصل غسان في أعماله الأدبية، باستثناء روايته «أم سعد»، بين البطولة والانتصار، وبين الفعل البطولي ومآله، معتبراً أن معنى الإنسان ماثل في ما أراد لا في ما وصل إليه. قاده هذا الفصل، القريب من «عدمية مقاتلة»، إلى فصل موازٍ بين الموت المثمر الذي يرعى الحياة والحياة العقيمة التي تحتفي بالموت. وبسبب ذلك تبدو «رجال في الشمس» رواية عن الموت في شكليه: فالحياة الذليلة التي يساكنها موت ذليل واضحة في اللاجئ الذي باع عائلته طمعاً بغرفة من الاسمنت، وفي المرأة الكسيحة التي تشتري زوجاً بغرفة مريحة، وفي الدليل الذي يهرّب أرواحاً ويزهقها، وفي موظف الحدود المشغول براقصة وهمية.. أما الموت المزهر فيتوزع على الفلسطينيين الذين تمسكوا بتراب وطنهم ودفنوا فيه.

تطرح رواية «رجال في الشمس» سؤال الهوية: من هو الفلسطيني؟ وما هو الشرط الذي يحقق هوية فلسطينية؟ يأتي الجواب من شكل الموت الذي يختاره الفلسطيني أو يأتي، بلغة أقل مأساوية، من عالم القيم، حيث «الفلسطيني الجوهري» حريص على شرفه. بيد أن تعقد المسألة الفلسطينية، الذي يحيل على عالم القيم والوعي التاريخي ومبادئ الحداثة، يجعل سؤال الهوية أكثر صعوبة، ويحوّل الهوية المنشودة إلى مشروع مستقبلي مفتوح. فإذا كانت الهوية لا وجود لها، نظرياً، إلا بمواجهة هوية مهدِدة (بكسر الدال) مغايرة، فإن تحقق الهوية المهدَدة (بفتح الدال) يقاس بقدرتها على هزيمة نقيضها، أو إخضاعه، وهو سؤال مرهون بميزان القوى لا بمبادئ الأخلاق[5].

يكشف الكفاح من أجل هوية وطنية متسقة عن الفرق بين التصور الفقير للكفاح الفلسطيني، الذي يربط حياة القضية بحياة الناطقين باسمها، والتصوّر الأخلاقي للتحرر، الذي يعتصم بالقيم الكبيرة وينبذ «المساومات الموسمية» جانباً.

بدأ غسان من سؤال العار ووصل إلى المأساة الشاملة، وتأمل علاقة الفلسطيني بعدوه، وطالب بـ فلسطيني نوعي مزوّد بالأخلاق والوعي والمعرفة يقاتل، بثبات، ولا ينتظر نصراً قريباً. يصبح الفلسطيني، تعريفاً، الإنسان السائر أبداً إلى التحرر من «عاره»، وإلى استئناف حياة سويّة ممكنة وغير ممكنة معاً.

2. «ما تبقى لكم» والتدرّب على مسح العار:

من أقوال غسان كنفاني: «كان الفرار موتاً». تكثّف الجملة حكاية «رجال في الشمس» والقول الذي أرادت البرهنة عنه. فهي ترى في «الفارّين» أمواتاً أُجِّلّ دفنهم، أو موتى بلا قبور، إمّا لأن أنفاسهم لم تخمد تماماً، حال الدليل العاجز، أو لأنهم غير جديرين بقبور تسترهم. يسرد الحرمان من القبر حكاية الأموات الذين حرموا منه، ويعلن أنهم لا يساوون البشر العاديين الذين ينتهون إلى قبور تخصهم. يظهر عار الفرار في عار لاحق، ويرمي على الفلسطيني بفضيحة لا يستطيع التستر عليها.

(5) راجع «العروبة وقضية فلسطين» (حوار مع قسطنطين زريق)، مؤسسة الدراسات الفلسطينية ببيروت 1995.

عاد غسان إلى موضوع العار في روايته اللاحقة «ما تبقى لكم» 1966، محاولاً أن يرتب، كتابياً، عالماً فلسطينياً «غير مرتب» على الإطلاق، كما جاء في «التوضيح»، الذي تُستهل به الرواية. وإذا كان في روايته الأولى قد ترجم وجوداً فلسطينياً ينضح بالعار، دون أن يلجأ إلى الكلمة إلا بقدر محدود، فهو في روايته الثانية يتناول حكاية العار، بشكلها الأكثر مباشرة رابطاً، رمزياً، بين البعدين الاجتماعي والوطني. تحدث الرواية عن أنثى «فقدت شرفها» وتزوجت «بعد الحمل» زواجاً بائساً، تخفيفاً من «الفضيحة» التي لا يمكن تخفيفها. بيد أن الحكاية التي تبدو تقليدية لا تلبث أن تحتشد بأبعاد رمزية تدع «العار الوطني الفلسطيني» عارياً. فعائلة الفتاة المستباحة هربت، في عام سقوط فلسطين، من يافا إلى غزة، وهو ما يعين الهرب مبتدأ للعار، مخلّفة وراءها، بسبب الرعب و«ضيق القارب» «أماً ضائعة»، إشارة إلى عائلة رخوة يتلو كل خلل فيها خلل آخر. وواقع الأمر أن غسان الساخط على شعب رخو، يفتقر إلى العزيمة ووضوح الحسبان، يرسم وجوداً فلسطينياً يدفعه تداعيه، بشكل مستقيم، إلى الكارثة. فقد فقدت العائلة «الأب» قبل الهرب، وضاعت «الأم» لحظة الهرب، وسقط «شرف الفتاة»، لاحقاً، بعد أن رحلت «الخالة المريضة»، تاركة وراءها «شابة جائعة» وصبياً تائهاً، في انتظار «جنين غير شرعي»، وزواج ما هو بالزواج بـ«صداق مؤجل».

يستأنف غسان في «ما تبقى لكم» التصور الذي أقام عليه «رجال في الشمس». فمثلما أن «الفرار موت»، يواجه اللاجئ في بداية الطريق أو نهايته، فإن «الفرار عار»، يتكشّف في عام الهرب أو بعده بقليل. يصبح العار موتاً آخر، ويتعيّن «الفرار» مرجعاً للموت والعار معاً، فهو الخطيئة القاتلة التي تبدّل معنى الموت والحياة، وهو البداية الزمنية لاغتراب لا

خروج منه، ولسقوط مدو لن يعود الوجود الفلسطيني بعده كما كان. ومع أن في حاضر اللجوء بؤساً معلناً، فإن آماد البؤس لا تتجلّى واضحة إلا باستذكار صورة الوطن الذي كان. كانت الفتاة المستباحة، قبل عام الفرار، ذكية لامعة واعدة «وردة المنشية» تنتظر زوجاً محترماً قبل أن تتزوج، وهي حامل في شهرها الرابع، من «لاجئ نتن» متزوج وله خمسة أطفال. يجعل السقوط من زمن إلى آخر، ومن مكان إلى غيره، الموت حاضراً قبل مجيئه، والعار حاصلاً قبل وقوعه، فلولا الفرار لما جاء الموت المهين ولا ضاع الشرف. ولعل وحدة الموت والعار، الذي هو موت آخر، هو الذي يدفع بالسارد إلى القول: ما تبقى لكم، «ما تبقى لي، ما تبقى لها».. والمتبقي «جُحر قميء»، وزوج «يشبه القرد»، وأم غائبة منذ ستة عشر عاماً.

ميّز غسان بين المأساة الأصل، والمآسي الصغيرة اللاحقة، التي تعبّر عن المأساة الكبرى ولا تضيف إليها شيئاً، وبين العار الأصل، الذي يتناسل طليقاً في عار فتاة أو عائلة. وبسبب سيطرة الأصل على غيره، يكون فلسطينيو اللجوء شظايا إنسانية لا قوام لها، أو دمى مستسلمة يتصرف بها الزمن ولا تسيطر عليه في شيء. ولهذا تذهب «الأرواح الميتة» إلى التمني: « لو كانت أمك هنا، وأمه لم تكن هناك أبداً، ولو كانت جدتك هنا، لو.. لو.. منذ ستة عشر عاماً. وهو يقول لها: لو كانت أمك هنا»[6]. والأم هي «الأرض القريبة»، التي لا يمكن الوصول إليها، التي تقود الفلسطيني إلى «موت جاهز»، يسبقه العار وتتلوه الفضيحة.

عيّن السارد «الوجود الآسن الفلسطيني» بشخصية الزوج، الذي انتهت إليه «وردة المنشية»، وأعطاه صفات مطابقة: «الكلب الذي سيصبح صهره، كان ضئيلاً بشعاً كالقرد، مجرّد لطخة في مكان غير

(6) الأعمال الكاملة: «ما تبقى لكم»، ص: 179.

مناسب، النتن، المخادع، الواشي، المتطامن أمام الإسرائيليين». ومع أن الصفات، في سلبها الموجع، تقع على فرد محدد منحط الأخلاق فهي تقع، في الوقت نفسه، على الشخصيات التي قبلت به، تمثلت بالفتاة المتعلمة الجميلة العريقة الأصل، التي هي «القضية الفلسطينية» في التحديد الأخير، أو تمثلت بـ «الصبي»، الذي سقط والده في فلسطين. ولهذا يقول الصبي: «أنت ملطخة وأنا مخدوع.. لو كانت أمك هنا.. لقد تركته يلوّثها.. ص 165 – 167». يبدو المآل الفلسطيني، بعد الهرب، ملوّثاً وملطخاً ومخدوعاً، ويبدو كل شيء «مؤجلاً»، كما لو كانت الروح الفلسطينية قد أدمنت المهانة. وكما هو الحال في «رجال في الشمس» يكشف غسان عن كراهية شديدة لذل شعبه، وعن مقت حارق لهوانه ومسكنته، والكلمات الثلاث: الذل، المهانة، المسكنة، واردة في روايتيه غير مرة. أين تكمن المأساة الفلسطينية في هذه الحدود ؟

تأتي المأساة من الفقد، الأمان المنقضي واليسر الراحل والتميز الاجتماعي المندثر ولوعة الفقد، التي تجعل الماضي علاقة في الحاضر، ومن العجز عن استعادة ما كان أو نسيانه: «منذ ستة عشر عاماً، وهو يقول لها: لو كانت أمك هنا»، «لو كانت أمي هنا لكان لجأ إليها»، «أي بؤس أمضيت حياتك فيه جعلك تقبلين بهذه النهاية، أي حياة تعسة جعلتك تقبلين به»»، «لقد جعل من أمه البعيدة ملجأ يؤمه ذات يوم صعب، وانصرف إلى تكبيره وإعداده إلى درجة نسي فيها أن يبني في نفسه رجلاً لا يحتاج في اليوم الصعب إلى ملجأ، ص: 194، 195». تصدر المأساة، في وجه منهما، عن الخطيئة الأصل، وتصدر صارخة، وفقاً لمنطق غسان، عن الاستكانة الفلسطينية التي تجافي مبادئ الكرامة

البسيطة، وعن انتظار بليد لا ينتظر شيئاً[7]. وغضب غسان الحارق على شعب لا يعرف معنى الزمن، يدفعه إلى تحديد سنوات الانتظار القاتلة. فهو يشير في «رجال في الشمس» إلى عشر سنوات من الانتظار البليد، وإلى ستة عشر عاماً من عقم الانتظار في «ما تبقى لكم»، وإلى عشرين سنة من وهم الذكريات في «عائد إلى حيفا». أملى عليه انتباهه إلى قيمة الزمن ومعناه، كما تصوره الغاضب من بشر يساوون بين الزمن والانتظار، إلى تعيين «الساعة» شخصية بين شخصيات أخرى، ترصد اليقظة والهمود ونبض القلب وحركة اليد، وتنطق باسم الموت والميلاد دمعاً.

خلق غسان شخصيات: «ما تبقى لكم»، ثم قذف بها إلى قرار المذلة، كي يأخذ بيدها إلى تمرد لا ضمان فيه، يستوي فيه الربح والخسارة، كما لو كانت قيمة التمرد قائمة فيه لأنه قيمة عليا، دون النظر إلى النتائج اللاحقة به. تمثّل ذلك في واقع الفتاة ومآلها: عانس تعتمد على أخ لا يُعتمد عليه، تعيش في «جحر قميء» في منطقة بائسة، ترى إلى ساعة تشبه «النعش» تتزوج، دفعاً للعار، بـ «صداق مؤجل»، من رجل متزوج يشبه القرد. وهذا الأخير، الذي خدع صديقاً ووشى بآخر أعدمه الإسرائيليون، يطلب من زوجة لم تكلفه شيئاً: الإجهاض»، ويهددها بالطلاق والعقاب، يراكم غسان مذلة لا تحتمل مستعيداً، شكل آخر، جملة «لماذا لم يقرعوا باب الخزّان»، ليقول إن مأساة الفلسطيني هي الفلسطينيون أنفسهم، الذين يبلعون الحصا والحجارة والغبار والأسلاك الشائكة، دون أن يلتفتوا إلى حلوقهم، أو يرفعوا شكوى قليلة أو كثيرة. إنه يضع إصبعه في عيون المستذلين المهانين، كي يعلمهم

(7) يجد القارئ مدخلاً إلى موضوع المأساة في: Rebecca Bushnell: Tragedy، Black well، London، 2008 بخاصة في الفصل الثالث ص: 52 – 83.

فضيلى الوقوف، ويخبرهم بأن أي خيار يقعون عليه أفضل من البؤس الذي يعيشونه. ولذلك يدعو إلى تمرد بلا ضمان، وإلى خروج من الجلد المستهلك القديم، سيان إن حصل الفلسطيني على قميص أو بقي عارياً، لأن قبوله بالمهانة المستديمة هو: العري الكامل، الذي يتناسل منه عار متعدد الوجوه.

يتجلى التمرد الذي لا ضامن له في مآل الصبي، الذي علك أسنانه طويلاً ولم يعرف قبر أبيه ولا مكان أمه، وفي مآل أخته، التي اتخذ منها «القرد الواشي» تسلية مجانية يختلف إليها وهو راجع من المدرسة إلى بيت زوجته الأولى، أو ذاهب منه إلى المدرسة. كأن غسان يسوط «شخصيتيه» لتتمردا، فهو خجل من عجزهما وخجل أكثر من انتسابهما إلى الشعب الذي ينتسب إليه. ومع أن في مآل الشخصيتين ما يوحي بالانتصار، فهو أقرب إلى «الخسارة» من أي شيء آخر: فالفتاة تحمل سكيناً وتقتل زوجها، والصبي يتأهب لقتل جندي صهيوني في مكان يسيطر عليه الجيش الإسرائيلي. أراد غسان أن يعطي المستذلين درساً في الوقوف، يحررهم من عار الخضوع ولا يعدهم بشيء، لأن الإحساس بالعار والتمرد عليه هو الانتصار الأكبر. لكن تحرر الفلسطيني من عاره، الذي هو جوهر مأساته، يحمل في طياته مأساة لاحقة، فلا قتل «الواشي القبيح» يعطي للمرأة حياة جديدة، ولا قتل الجندي الإسرائيلي يستقدم الأم البعيدة. فما يتغير يدور داخل الفلسطيني ولا ينفتح على خارجه، وما يختلف لا يبدل من المعيش الفلسطيني شيئاً.

يضع العالم الفلسطيني المغلق على أحزانه وأوهامه وتمرده في كتابة غسان نبرة مأسوية واسعة، ذلك أن الفلسطيني مهان إن صمت وخاسر إن تحرك. ولأن الخسارة الآتية من الصمت أكثر فداحة من الخسارة المتأتية من التمرد، يكون على الفلسطيني أن يتكيّف مع «الموت» ولا يهابه أبداً. تنتهي الرواية بالكلمات التالية: «أضاء شعاع الشمس الضيق المسترب من النافذة خطاً رفيعاً من الدم.. ودوّى صوت الصمت فجأة، ص: 233». تنطوي جملة «أضاء شعاع الشمس»، كما «ودوّى صوت الصمت»، على نبرة انتصارية، من دون أن تكون انتصارية على الإطلاق فما يجري «داخل الفلسطيني» لا يمس «خارجه» في شيء. يقول الصبي الذي اختار التمرد: «لقد حملت أمي السر معها وتركتنا. ما تبقى لها ما تبقى لكم. ما تبقى لي. حساب البقايا. حساب الخسارة. حساب الموت. ما تبقى لي في العالم كله: ممر من الرمال السوداء، عبارة بين خسارتين، نفق مسدود من طرفيه. كله مؤجّل، كله مؤجّل. ص: 215».

إن «المتبقي الفسطيني»، كما يقول الصبي، بؤس يجر الفلسطيني إلى موته، أو موت يحرّر الفلسطيني من بؤسه. وإذا كان «المتبقي الفعلي» موتاً مهيناً، فمن الأفضل والأرشد أن يختار الفلسطيني «موتاً كريماً» يستر به عريه وعاره معاً. أعاد غسان في «ما تبقى لكم» حكاية «رجال في الشمس» بشكل آخر. رسم في الرواية الأولى بائسين اختار لهم دليل بائس موتاً بائساً، ورسم في الرواية الثانية بائسين طردوا «الدليل» البشع كالقرد واختاروا موتاً مغايراً. والنتيجة، في الحالين، هو الموت، وإن كان «موت عن موت يفرق»، وهو ما عبّر عنه غسان بصيغة أخرى، حين قال على لسان «أم سعد»: «خيمة عن خيمة تفرق»[8]. أخذ «الواشي القبيح»، في «ما تبقى لكم» دور الدليل في «رجال في الشمس». فالطرفان فلسطينيان، وكل منهما أناني مهزوم مشغول بمنافعه الفقيرة. وإذا كان الأول قد دفع فلسطينياً بائساً إلى قتله، فقد تابع الثاني حياة خالية من الحياة، فهو عقيم وعاجز عن الإنجاب.

(8) غسان كنفاني: الآثار الكاملة، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، 2005، رواية أم سعد، الفصل الثاني، ص: 257.

ترجم غسان في «ما تبقى لكم» جملة «لماذا لم يقرعوا جدران الخزّان؟» بتشاؤم أقل، فهؤلاء الذين ينتظرون في «خزّان لا يطاق»، خرجوا منه وقتلوا «سائق الشاحنة». شرح المؤلف في رواية كثيفة الرموز معقدة «مبادئ التمرد على العار» وأساليب مواجهته: المغامرة، «التحالف مع الطريق»، استعمال السكين، النقد الذاتي والخروج من «القبر» إلى سطح الأرض.. ومع أن الروائي شاء بنية فنية غير تقليدية، فقد كان مسكوناً بهدف تربوي، يفصل بين الزائف والحقيقي، وبين ما هو قائم وما يجب أن يكون. عيّن «الزمن» شاهداً على الانتقال من مكان إلى مكان، ومن «أرواح آسنة» إلى أرواح مضطربة قلقة متوترة، إعلاناً عن وليدة سعيدة حزينة: سعيدة هي لأنها تمسح العار بالتضحية بالذات، وحزينة هي لأن مآل «الفرد الشجاع» لا يساوي مآل القضية التي يدافع عنها. فبين رغبة الأفراد ومشيئة التاريخ هوة يحتاج تجسيرها إلى زمن لا يمكن حسبانه.

3. عائد إلى حيفا والصهيوني المعلّم:

شرح غسان في «ما تبقّى لكم» الطريقة الوحيدة التي يستعيد بها الفلسطيني «شرفه المفقود». أمّا في روايته «عائد إلى حيفا»، فيشرح الفرق بين «الإنسان الشريف» ونقيضه، مقرّراً أن «الإنسان قضيّة»، وأن الشريف هو الذي يقاتل من أجل قضيته، وأن الإنسان المجلّل بالعار هو الذي يتخلّى عنها ويتركها في العراء. يتمثّل «الشريف»، الذي أدار غسان حديثه عنه بـ «المقاتل الصهيوني»، الذي التزم بقضية آمن بها، وقاتل من أجلها ومات في سبيلها[9].

(9) فيصل دراج: ذاكرة المغلوبين، المركز الثقافي العربي، بيروت، 2002 ص: 59 – 65.

تدور الرواية حول زوجين فلسطينييْن من حيفا أنساهما رعب الخروج، في «صباح الأربعاء الواقع في 21 نيسان/إبريل 1948، طفلهما، وعادا يبحثان عنه، بعد حرب 1967، التي جعلت فلسطين موحّدة تحت الاحتلال الإسرائيلي. اكتشف الزوجان أن الطفل أصبح مجنداً في الجيش الإسرائيلي، بعد أن عثرت عليه ورعته وتبنّته امرأة يهودية. تحكي الرواية عن معنى الاسم وانتقال الملكية ووظيفة الأبوة والأمومة وحقوق «الملكية الشرعية» ودلالة النسب والانتماء. أخذ «الطفل المفقود» اسماً يهودياً «دوف»، فمن يظفر بشيء يحق له تسميته، وأخذ انتماءً جديداً يطابق انتماء الطرف اليهودي الذي تعهده بالرعاية، وألزمه «التبني» بمهنة أبيه، الذي قاتل من أجل «أرض إسرائيل» ومات في سيناء. فلا ملكية إلا بالدفاع عنها، لأن الملكية تملك الأدوات التي تحمي الملكية.

بحث الفلسطينيان عن «طفلهما الضائع» مدفوعيْن بالذكريات و«بداهة الحق»، ناسيين أن «التسمية» من حقوق الملكية، وأن الاحتفاظ بالملكية فعل مقاتل، لا يلتفت إلى «التوريث الطبيعي». وبسبب ذلك، فإن الطفل الفلسطيني، الذي لم يعد طفلاً ولا فلسطينياً، يسخر من «عربي مهزوم»، هو أبيه القديم، الذي أقنعته أوهامه أن «الوطن حفنة من الذكريات»، وأن ما تدّعيه الذاكرة يلبيه الواقع. وضع غسان في رواية عقلانية المحاكمة اللاجئ الفلسطيني في مواجهة المحتل الصهيوني، وأدار بينهما حديثاً واضحاً عن الوطن والالتزام، منتهياً إلى نتيجة «منطقية» تقول: إن الأرض لمن يقاتل في سبيلها، وأن من لا يحسن القتال عن أرضه لا أرض له، وأن «الطفل» من حق الطرف الذي تعهّده بالرعاية، لا من حق الطرف الذي أنجبه.

تحدّثت رواية «عائد إلى حيفا» عن الوطن والملكية والشرف، قائلة بـ «إسرائيلي شريف»، وبفلسطيني لن يستعيد شرفه إلا إذا قاتل عدوه بأدوات عنوانها: الاستعداد المستمر للموت في سبيل الوطن. انتهت الرواية، في علاقاتها المختلفة، إلى ثلاث نتائج، هجس بها الروائي ولم يسيطر عليها تماماً. تقول الأولى: استولد الصهيوني حقه مرتكناً إلى جدارة ذاتية ملتزمة مقاتلة، مؤكداً أن الحق من القوة، وأن المقاتل من أجل حقه يحيل على «الشرف»، قبل أن يحيل على صفات أخرى. وتقول الثانية، يصبح الفلسطيني جديراً بوطنه المغتصب، إذا حاكى عدوه في التزامه المقاتل، ووحّد مثله بين الفعل والعقيدة، وبين الفكرة والموت من أجلها. تفضي النتيجتان إلى الثالثة التي تقول: أنجز الصهيوني فعلاً منطقياً ومشروعاً وأخطأ في اختيار المكان، لا أكثر، لأن مشروعه شرّد أهل حيفا وحرمهم من وطنهم.

تقوّض النتائج الثلاث التقييم الأخلاقي للحق والباطل، معتبرة القوة مرجعاً للطرفين، وتؤكد التاريخ مساحة مفتوحة، تمتثل إلى الصراع المادي ولا تلتفت إلى الذكريات والأماني. ولعل مفهوم القوة الواعية لأهدافها، كما الهدف الذي يقترح وسائل تحققه، هو الذي يعيّن المقاتل الصهيوني أستاذاً للفلسطيني، الذي يريد أن يسترجع وطنه. فقد «خلق» الصهيوني انتصاره، حين عثر على «طفل مهجور» وربّاه وأعطاه اسماً، وخلق الفلسطيني هزيمته، أو عاره بشكل أدق، حين تخلى عن وطنه و«طفله» معاً. تدور العلاقة بين وطن «عُثر عليه» وآخر أضاعه صاحبه، من ناحية، وبين إنسان يعرف معنى التضحية والالتزام الوطني وآخر تساهل في الأمرين معاً. تلخص الرواية قولها في الجملة التالية: «كيف يستطيع من هو ليس أمه وليس أباه: أن يحتضناه ويربّياه عشرين

سنة ؟». تنقد الرواية، التي أخذها غسان من أسطورة قديمة حوّلها الألماني بريشت إلى مسرحية، النزعة الاسمية، التي تساوي بين الكلمات والأشياء، معتقدة أن القول بفلسطين امتلاك لها. كشف اللقاء المباشر بين الفلسطيني والصهيوني عن وَهَن القول وصلابة الفعل، وعلّم الأول أن الصدام مع العدو يقضي بالتعرّف عليه.

يقول الفلسطيني المصدوم بعد أن أيقظته الصدمة من أوهامه: «فلسطين، بالنسبة لنا، مجرد تفتيش عن شيء تحت غبار الذاكرة، ماذا وجدنا تحت ذلك الغبار.. غباراً جديداً أيضاً. ص: 412». ولأن فلسطين أكثر من ذاكرة، يلتقي الفلسطيني بالجندي الصهيوني ولا يلتقي بفلسطين، التي يحتاج اللقاء بها إلى أكثر من ذاكرة، وهو أمر يتفق عليه الصهيوني والفلسطيني، «الذي رأى في الصهيوني أستاذاً له». ولهذا يقول الأول متوجهاً إلى الثاني: «تستطيعان البقاء مؤقتاً في بيتنا فذلك شيء تحتاج تسويته إلى حرب. ص: 413»، ويقول الفلسطيني متوجهاً إلى زوجته: «ألم أقل لك.. إنه كان يتوجب علينا ألاّ نأتي. وإن ذلك يحتاج إلى حرب؟ هيا بنا. ص: 413». أقام غسان نصه على منظور عقلاني صارم، قوامه وحدة الحق والدفاع عنه، دون تزيّد بلاغي، لا يضيف إلى الموضوع الأساسي شيئاً. فقد قابل الصهيوني المنتصر الفلسطيني المهزوم، وحاوره وحاججه واستعد لاستضافته، ذلك أن ما هو أساسي في تصور غسان يتعيّن بالممارسة والقيم، التي تجمع بين الصهيوني المتحقق والفلسطيني كما يجب أن يكون. يتبادل الصهيوني المتحقق والفلسطيني المحتمل المواقع، فالأول هو الثاني بعد أن مسح عاره، والثاني هو الأول الذي حافظ على شرفه. تتكشّف هذه المعادلة المضطربة في قول الفلسطيني المهزوم: «إن دوف هو عارنا، ولكن خالد هو شرفنا الباقي». العار هو «خلدون» الذي أضاعه أبواه وأصبح

صهيونياً، والشرف هو أخوه الفدائي الذي سيصبح «دوف» فلسطينياً. والنتيجة صهيوني مقاتل وفلسطيني تدرّب على السلاح، يتقاسمان الجدارة إلى تخوم التطابق. ومهما يكن مآل الحرب، التي يحتاجها الطرفان، فالمشترك بينهما واضح محدّد بيّن: الالتزام بشرف القتال والبرهنة، في الحالين، إن الإنسان قضية.

نقرأ في الرواية: «إن الإنسان هو في نهاية الأمر قضية، الدموع لا تسترد المفقودين ولا الضائعين، ولا تجترح المعجزات.. أفتش عن فلسطين الحقيقية، فلسطين التي هي أكثر من ذاكرة». تتوزّع هذه الأقوال على الصهيوني، الذي يعيش قضيته بلا أوهام، وعلى الفلسطيني بعد أن قابل الصهيوني ورأى الحقيقة عارية. تساوي فلسطين الحقيقية، في تصور غسان، الفلسطيني الحقيقي المنتسب إليها، الذي يساوي بدوره مُثُلاً إيجابية، لا تقبل بالعار والاستسلام. فلا معنى للأرض إن لم تكن وطناً، ولا وجود للوطن إلا بإنسان مزوّد بالأخلاق والشجاعة والمعرفة، ينجبه الوعي والإرادة، إنسان احتمال، يجب نقله من حيّز الفكرة إلى حيّز الواقع. ولهذا، فإن الحديث عن «فلسطين حقيقية» حديث عن «فلسطيني حقيقي»، يجب توليده، يختلف عن «الفلسطيني المعطى» المشغول بـ «الغبار» والذكريات.

رأى غسان في استعادة فلسطين المحتلة مشروعاً نوعياً استثنائياً، يحتاج إلى فلسطيني استثنائي متحرر من ماضيه السلبي وحاضره القائم على الذكريات. دفعه هذا المنظور إلى تأكيد عنصرين: تأكيد دور الممارسة، إذ الرجوع إلى فلسطين بحث مستمر عن العناصر التي تؤمن ذلك، والإيمان بتوليد جديد حاسم، يغاير الفلسطيني الذي سبق سقوط فلسطين وتلاه. ولعل توليد الأسئلة من حيّز جديد هو الذي أملى على غسان أن يخلق فلسطينياً يعرف الصهيوني ويتعرّف عليه عن قرب، ولا يكتفي بصورة متوهمة له. فقد انصرف الخطاب المسيطر، بعد هزيمة 1967 وقبلها، إلى رسم صورة مجردة لصهيوني مجرد، يستطيع الفلسطيني أن يقاتله دون أن يعرفه، ودون أن يعرف ذاته أيضاً. قصدت رواية «عائد إلى حيفا» إلى تعرّف مزدوج:التعرّف على الآخر الصهيوني تعرّفاً فعلياً، والتعرّف الفعلي على «مادة» الفلسطيني الذي يريد أن يحاربه.

استعاد غسان، في الشرط الفلسطيني، قاعدة سقراط: «اعرف نفسك»، التي تأخذ لدى الفلسطيني شكلاً آخر: اعرف نفسك كي تعرف عدوك، فتقييم العدو إعادة تقييم للذات، واعرف عدوك كي تعرف نفسك، فالمعركة معرفة قبل أن تكون شجاعة. تأمر القاعدة، في وجهيها، الإنسان الفلسطيني المقاتل أو الذي يريد القتال أن يخلع جلده القديم، وأن يعرف الفرق بين الجلد المتساقط المهزوم والجلد الجديد المطلوب الحصول عليه. يقول «دوف» العسكري الصهيوني مخاطباً الفلسطيني العاجز: «ماذا فعلت خلال عشرين سنة كي تسترد ابنك؟ لو كنت مكانك لحملت السلاح من أجل هذا، أيوجد سبب أكثر قوة؟ عاجزون.. عاجزون.. مقيّدون لتلك السلاسل الثقيلة من التخلّف والشلل.. ص: 49». ما يقوله العسكري الصهيوني للفلسطيني هو ما يجب أن يقوله الفلسطيني العاجز لنفسه، وهو ما يقوله غسان، الذي يتفق كلياً مع كلمات المجند الإسرائيلي[10].

ينطوي لقاء الفلسطيني مع عدوه على عدة وجوه: معرفة الذات عن

(10) يضيء هذا الموضوع كتاب جوزيف مسعد: «ديمومة المسألة الفلسطينية»، دار الآداب، بيروت، 2009، ص:213 – 246 و260 – 264، على سبيل المثال.

طريق الآخر، التعرّف على الآخر والتعلّم منه، إدراك معنى المقارنة، إذ لا معنى لإنسان إلا مقارنة بآخر، الوصول الطوعي إلى النقد الذاتي، الحض على الاكتشاف والتجربة، فلولا اللقاء بالآخر المسلّح لما تحرّر الفلسطيني من أوهامه.. تترافد العناصر المختلفة مفضية إلى العنصر المسيطر الحاكم لها جميعاً المتمثل بـ «عالم القيم الوطنية الحقيقية»، الذي يبدو المجند الصهيوني مرآة له، ويتطلع الفلسطيني الذي صدمته التجربة إلى محاكاته. والسؤال الضروري الذي لا بدّ منه هو التالي: لماذا أنتج نص غسان فلسطينياً ضاق بجلده، اقتنع بمحاكاة عدوه واعتبره مقاتلاً نجيباً؟ للجواب مداخل عديدة: أولها ذلك القانون القديم الذي يقضي على «المتأخر» بأن يقلد «المتقدم»، ويدفع بالضعيف إلى مطاولة القوي. يوحي هذا القانون، في سياق كتابة الرواية 1969 بفكرة: فتنة المنتصر، التي تقنع المهزوم بالتشبه بنقيض له حقّق انتصاراً ساحقاً، وهو حال الجندي الصهيوني في حرب 1967. ويتعيّن المدخل الثاني باستراتيجية غسان الكتابية، التي ترمي إلى «الصدمة» التي تجبر الفلسطيني، إن كان عاقلاً، أن يقذف بأسئلته وإجاباته التقليدية جانباً، وأن يسعى إلى أسئلة وإجابات جديدة. يضاف إلى ذلك افتتان غسان المؤكد بفكرة «الموت الإرادي»، أو «الموت الشريف»، التي تلازم إنساناً نوعياً، يريد أن يختار موته، بعد أن فاته أن يختار ميلاده، كما جاء في مسرحية «الباب». يأتي المدخل الثالث، وهو يستدعي النظرية الأدبية، من مخادعة النص لكاتبه، حيث النص ينتج، في علاقاته المختلفة، القول الذي صاغه لا القول الذي أراده مؤلفه.

لا تنفصل رواية «عائد إلى حيفا» عن نصوص سابقة، من ذلك التجريب الفني أو القول التربوي المقصود: فقد حاول غسان إدراج تقنية وليم فوكنر في روايته «ما تبقى لكم»، كما يعلم الذين درسوا أعماله، واستعاد في «عائد إلى حيفا» مسرحية بريشت «دائرة الطباشير القوقازية»، وأعطاها «صياغة فلسطينية». وضع في العملين لقاء بين الفلسطيني وعدوه، ووضع في العملين فلسطينياً قلقاً يذهب إلى مواجهة عدوه. بيد أن ما هو مسيطر في النصين، كما في نصوص أخرى، هو: فكرة العار، الذي سقط على الفلسطيني ودفع ثمنه، وفكرة استعادة الشرف المفقود، التي لا ترفع الفلسطيني إلى مقام «البطل»، بل تجعل منه «إنساناً سوياً»، لا أكثر ولا أقل، فلا وجود لإنسان سوي أضاع شرفه.

أقام غسان نصه على ثنائية أساسية تتوالد في ثنائيات متناظرة: المقاتل والمستسلم، القادر والعاجز، السوي والشاذ.. تحتضن الثنائية، في وجوهها المختلفة، الصهيوني والفلسطيني، الذي ينفي كل منهما الآخر، وتظل مشدوداً إلى مقولة «الإنسان السوي»، الذي يلبي القيم السويّة، صهيونياً احتل أرض غيره أو فلسطينياً سقط في الشذوذ وتخلّص منه. ولعل فكرة «الجوهر الإنساني»، كما فكرة الإنسان الذي يتصرّف بأقداره ولا يدع أقداره تتصرف به، هي التي جعلت غسان يستقدم يهودياً من خارج فلسطين إلى داخلها، كي تطلب من الفلسطيني أن يتحرر من «خارج فلسطين» وأن يستعيد «داخلها».

انتهى نص غسان إلى ثنائية: الجلّاد اللامع والضحية القادرة على التعلّم. يتبادل الطرفان الاتهام ويتفقان على المضامين. يقول الإسرائيلي للفلسطيني: «لقد أمضيت عشرين سنة تبكي، أهذا ما تقوله لي الآن؟ أهذا هو سلاحك المفلول ؟.. ص: 409». يعيد الفلسطيني، وهو يخاطب زوجته، ما قاله عدوه بشكل آخر: «لقد شاخت هذه المرأة حقاً، واستنزفت شبابها وهي تنتظر هذه اللحظة، دون أن تعرف أنها لحظة

مروعة». إن اللحظة المروعة محصلة لعشرين سنة من البكاء والأوهام، واللحظة «الرائعة» هي استبدال «السلاح المفلول» بسلاح آخر. تنتهي الرواية بجملة قصيرة واضحة: «أرجو أن يكون خالد قد ذهب... أثناء غيابنا»!». إن خالد «الفدائي» امتداد مغاير لـ «خلدون» الذي أضاعه والداه، وصورة عن «دوف» المجند الإسرائيلي. إنه الشرف الفلسطيني المتحقق، الذي يختلف مع الشرف الصهيوني على «الأرض»، ولا يختلف معه في القيم. فلو كان الصهيوني فوق أرض أخرى لكانا «توأمين»، فكلاهما مستعد للموت في سبيل قضيته.

4. ما الذي تبقّى من غسان في زمن مختلف؟

عزا كنفاني «العار الفلسطيني» إلى وهن الكرامة والجهل بحقيقة المأساة الفلسطينية، في عناصرها المعقدة المركبة، ورأى بداية الحل في أخلاق نوعية ومعرفة جديدتين. ومع أنه نقد خطاب «منظمة التحرير» نقداً شديداً بعد هزيمة حزيران/يونيو 1967، فقد رأى في «الكفاح المسلح»، وكما رسمه في روايته «أم سعد»، مدخلاً إلى مرحلة فلسطينية نوعية، «اعتبرت النقد بالسلاح» قاعدة لكل نقد آخر. اشتق التفاؤل من معنى «الفدائي»، الذي يذهب إلى «خياره» حراً، ويعطيه استعداده للقتال شخصية جديدة، ومن اعتقاده أن «الفدائيين» يعبّرون عن «روح الشعب»، بعيداً عن «إدارة تقليدية» لم يثق بها.

ميّز غسان، منذ البداية، بين «الصحيح»، الذي تجسّده أخلاق تحررية لا تعرف المساومة، وبين «المفيد اليومي»، الذي يلتفت إلى «مصالح فئوية» ويضع مبادئ التحرر جانباً. وعن هذا «المفيد» المتعدد العناصر تطورت، لأسباب مختلفة، سياسة فلسطينية همشّت «المبادئ» واحتفت بغايات يطغى فيها الوهم على الواقع والفئوي على الجماعي والسلطوي على الوطني. ولم يكن ذلك الاحتفاء إلا انزياحاً عن القاعدة التي هجس بها غسان المتمثلة بوحدة: الأخلاق الصارمة والمعرفة الموضوعية. لم يتوقع الأديب الراحل أن قاعدته ستسقط في مفارقة فاجعة، ذلك أن الكفاح المسلح، الذي انطلق ليمحو العار، دار حول ذاته طويلاً لينتهي إلى «عار جديد». فبعد عقود من الكفاح ابتعدت فلسطين ولم تقترب، وأضيف إلى الاحتلال الأول احتلال جديد، وبقي اللاجئون في مخيماتهم، وظل «المجند الإسرائيلي» مسيطراً، واستأنف «الخمود» طريقه إلى أرواح كثيرة.

لم تُهزم قاعدة غسان بسبب خلل داخلي، ولم يهزمها الإرهاب الصهيوني، إنما هزمت «فلسطينياً»، لأن العمل السياسي الفلسطيني فرّط بالعلاقة الضرورية بين الفعل الوطني والسياسة الأخلاقية، وبين الاقتراح السياسي والمعرفة الموضوعية بسياسة إسرائيل وأهدافها. والآن ماذا تبقى من غسان؟ بقيت أفكاره صحيحة، و«تداعت الأطراف الفلسطينية» القادرة على وعي هذه الأفكار وتطبيقها. ولهذا استمر «العار القديم» وأخذ أشكالاً جديدة، تجعل «حصاره» أمراً صعباً وبالغ الصعوبة.